المسبّحات في القرآن الكريم

دراسة دلالية بيانية

د. مريم محمود مصطفى الشوبكي



المسبِّحات في القرآن الكريم

دراسة دلالية بيانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٥/١/٥١) مركز الايداع ٢٢٥

ردمك ٩٧٨ - ٩٩٥٧- ٥٩٤ -٠٦ - ٠ ISBN

المسبّحات في القرآن الكريم دراسة دلالية بيانية

الدكتورة : مريم محمود مصطفى الشوبكي

الواصفات: القران الكريم / العلوم القرآنية / قواعد اللغة

دار الجنان للنشر والتوزيع

عمان – العبدلي - مجمع جوهرة القدس التجاري – ط(M)

- هاتف: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٩٨٩١ تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٩٨٩٢
- موبايل: ٠٠٩٦٢ ٧٩٥٧٤٧٤٦٠ موبايل: ٠٠٩٦٢ ٧٩٦٢٩٥٤٥٧
- هاتف السودان – الخرطوم ٠٠٢٤٩ ٩١٨٠٦٤٩٨٤
- ص .ب ٩٢٧٤٨٦ الرمز البريدي ١١١٩٠ العبدلي
- البريد الإلكتروني: dar_ jenan@yahoo.com

daraljenanbook@gmail.com

المسبّحات في القرآن الكريم

دراسة دلالية بيانية

الدكتورة

مريم محمود مصطفى الشوبكي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الإهداء

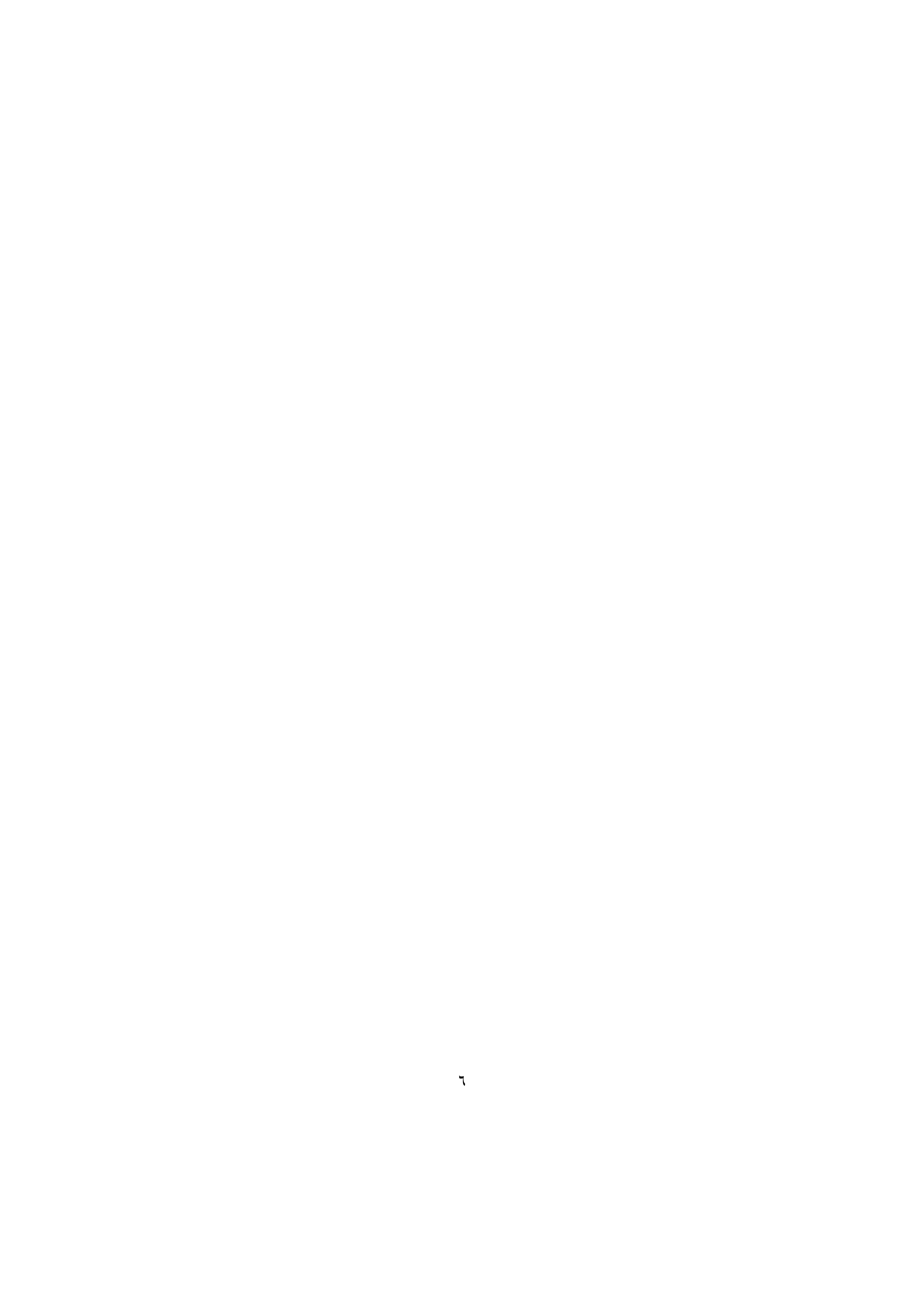
أهدي هذا العمل المتواضع إلى روح والدي الذي ما عرفته إلا عابدًا لربه ، مصليّاً ، قائمًا ، تالياً لكتابه الكريم ، والذي علمني الجدّ والإخلاص في العمل ، رحمه الله ، وإلى والدتي حفظها الله.

إلى أستاذي الدكتور عمر الأسعد الذي تعلمت منه الحرص على كيفية الحصول على المعلومة من مصادرها بدقة ، والجد في طلب العلم ، أطال الله بقاءه.

إلى أفراد أسرتي الذين أعتز بهم جميعًا رعاهم الله.

إلى عشّاق اللغة العربية لغة القرآن الكريم المعجز.

وإلى كل مجدّ يسعى في طلب علم ينتفع به ويخدم أمته.



التقديم:

أتاحت لي الباحثة الفاضلة الدكتورة مريم الشوبكي الاطّلاع على كتابها القيِّم "المسبِّحات في القرآن الكريم – دراسة دلالية بيانية"، وعهدَتْ إليّ أن أُقدم الكتاب إلى قرائه، فأعرّفهم بموضوعه، فصرفَتْني النواحي الإيجابية فيه إلى تلبية هذه الرغبة. وأبرز هذه النواحي اثنتان: الأولى حُسْن اختيار الموضوع، لقلة من تناوله بحثًا واستقصاءً، ولأنه إضافة نوعية قيِّمة لمباحث علوم القرآن. والثانية حُسْن التخطيط له وتناوله من جوانبه المختلفة.

وموضوع المسبِّحات الذي اختارته المؤلفة لكتابها، يندرج في عنوان عريض هو مطالع السور القرآنية. وبعض هذه المطالع تناوله القدماء والمحدثون بالبحث والنظر، كالحروف المقطّعة في أوائل السور، وبعضها أقل تناولاً كمطالع الحمد والتسبيح والنداء والقسم والشرط والأمر والاستفهام والإخبار.

افتُتح بالتسبيح سبعُ سور من القرآن، وتراوحت صيغه بين المصدر: سبحان (الإسراء)، والماضي: سبَّح (الحديد، والحشر، والصفّ)، والمضارع: يُسبِّح (الجمعة والتغابن)، والأمر: سَبِّحْ (الأعلى). وجاءت كلها في عداد سور المفصل من القرآن عدا واحدة، وانتظمها قاسم مشترك يتمثل في العلاقة بين صيغة التسبيح التي استُهلَّتْ بها السور، ومضمون السورة، والفروق الدقيقة بين هذه المطالع المتمثلة في استعمال صيغة المصدر وصيغ الفعل الثلاث، وانعكاس ذلك على مضامينها.

وبالإضافة إلى ذلك تنبّهت المؤلفة إلى جملة من الحقائق والاستنتاجات تتمثل في:

– المناسبة بين بداية السور ومضامينها وخواتيمها، والعلاقات الدقيقة بين أولئك جميعًا.

– البحث عن دلالات مشتركة بين المسبّحات، وكذلك إبراز دلالات منفردة استقلَّتْ بها كلٌّ منها.

- عرض فواصل مشتركة لآيات هذه السور، وانفراد بعضها بفواصل مستقلّة مختلفة، ودلالة ذلك.

- تناول بعض الصور البيانية التي ازدحمت بها هذه السور، وربطها كلها بافتتاحها بالتسبيح، ودلالة ذلك من الناحية البلاغية والأسلوبية.

كل أولئك جعل من الكتاب الذي ضمّ بين دفتيه هذه البحوث، كتاباً جديرًا بالقراءة والتأمل والإفادة.

وإني لآمل أن يكون في هذه الدراسة إضافة مفيدة إلى مكتبة الدراسات القرآنية.

والله الهادي إلى سواء السبيل

الدكتور عمر الأسعد

العاشر من ربيع الأول ١٤٣٦هـ

غرة السنة الميلادية ٢٠١٥م

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين رحمة للعالمين ، وبعد أن حفظ المسلمون القرآن في الصدور قبل السطور، سخّروا أنفسهم لخدمته ، فوضعوا علوم العربية المختلفة من نحو وصرف وبلاغة لخدمة القرآن الكريم ، ووضع المهتمون بعلوم القرآن الكثير من المصنفات مثل "البرهان في علوم القرآن" للزركشي ، ومنها ما تناول شرح مفرداته ، مثل "مفردات غريب القرآن" للراغب الأصفهاني ، وأما التفاسير فقد تنوعت اتجاهاتها، فمنها ما جنح إلى الرأي مثل "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي، ومنها ما اتجه إلى النحومثل" البحر المحيط " ، أمّا الزمخشري فقد جنح إلى التفسير البلاغي في " الكشاف".

وقد كان القرآن وما زال مصدراً خصباً للدراسة والبحث ، وإظهار إعجازه البياني الذي تَمثَّلَ في كل آية من آياته ، مرتبطاً بالمعنى ، دالاً عليه مؤكداً له ، وحديثاً كَثُرت هذه الدراسات التي انصبت على الجانب البلاغي . وبعد التوكل على الله رأت الباحثة أن تتجه إلى هذا النوع من الدراسة ، وذلك بدراسة سور المسبّحات دراسة دلالية بيانية ، لإبراز العلاقات التي تجمع هذه السور ، اعتماداً على كتب علوم القرآن والتفسير والبلاغة والنحو.

تنصب هذه الدراسة على السور التي تُستَهل بالتسبيح "سبحان ، ويُسبّحُ ، وسبّحَ وسبّحْ" ، التي تسمّى بالمسبّحات ، وتتناول الجانب الدلالي والبياني في هذه السور من خلال دراسة المعنى والمضمون، وتحليل ما ورد فيها من الصور البيانية .

وتهدف هذه الدراسة التي انطلقت من الرغبة في إعداد دراسة خاصة لبعض سورالقرآن التي ينتظمها ناظم واحد، ومنها المسبِّحات ، إلى إبراز العلاقة التي تربط بين هذه السور من حيث المضمون ، والمعنى الدلالي ، والوقوف على صور البيان

وأسراره ، ومحاولة إبراز العلاقة بين السور التي استُهلت بالتسبيح ، مما يؤكد أهمية التسبيح في حياة المسلم ، ودراستها دراسة دلالية بيانية ، والجمع بينها في دراسة واحدة بعنوان المسبّحات ، ويقتضي البيان القرآني أمراً مهماً يجمع هذه السور ذات الافتتاح الموحد ، شأن المسبّحات في ذلك شأن الحواميم في القرآن والطواسين ، فدراسة أمثال هذه المجموعات من السور تفضي إلى حقائق بيانية ونتائج تبرز بلاغة القرآن وروعة إعجازه.

وجاءت هذه الدراسة في ثلاثة فصول ، الفصل الفصل بعنوان "المسبّحات في القرآن إضاءات" ويشتمل على ستة أقسام : القسم الأول يتضمن مفهوم المسبّحات ، والقسم الثاني يتضمن فضلها ، من خلال ذكر بعض الأحاديث النبوية التي تتعلق بذلك الفضل، والقسم الثالث يتضمن عددها وآياتها، ومكان نزولها ، والقسم الرابع يتضمن أسماء السور، واختصاصها بما سميت به ، والقسم الخامس يتضمن استهلالها بالتسبيح، والمناسبة بين بداية السور وخواتيمها ، و القسم السادس يتضمن ترتيب سور المسبحات والتناسب بينها ، وقد بينت ذلك من خلال عرض آراء العلماء.

وأمّا الفصل الثاني" الدراسة الدلالية" فقد اشتمل على أربعة أقسام ، تضمن القسم الأول الدلالات والمضامين المشتركة بين سور المسبحات ، فقد عرضت أبرز الأفكار التي تكرر ذكرها في السور، وحللت مضامينها مبينة العلاقة بينها ، وأمّا القسم الثاني فقد تضمن أبرز الدلالات والمضامين التي انفردت بها سور المسبّحات ، وأمّا القسم الثالث فقد تضمن بعض القيم والمبادئ ، وعرضتها في ثلاثة محاور تضمن المحور الأول القيم الإيمانية ، وتضمن المحور الثاني القيم الاقتصادية ، وتضمن المحور الثالث القيم الأخلاقية الاجتماعية ، وتمّ طرحها من خلال سياق الآيات التي وردت فيها ، وأمّا القسم الرابع

فقد تضمن الفاصلة القرآنية ، وعرضت نماذج من أبرز الفواصل المشتركة بين سور المسبّحات وبينت دلالة الفاصلة والغرض منها.

وأمّا الفصل الثالث فقد تضمن دراسة بيانية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية ، حيث تمّ تحليل نماذج من الآيات التي تضمنت صورًا بيانية ، ووضحت أثرها في المضمون.

والله ولي التوفيق

الفصل الاول

المسبّحات في القرآن

إضاءات:

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم هداية ورحمة ونورًا للعالمين ، وتذكرة لمن شاء أن يستقيم، فقد قال عزّ وجلّ :﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ (القمر/ ١٧)، وكان من تيسير الله القرآن العظيم أن أنزله على الرسولﷺ منجماً أي مفرقاً ،" ففُرّق عليه ليبسر عليه حفظه" (١)، وقد قسم العلماء سور القرآن وَفق طول السور وقصرها "إلى أربعة أقسام : الطُّوَل ، والمئون ، والمثاني، والمفصَل ، وسُميت الطُوَل لطولها ، والمئون ما ولي السبع الطول ، وسُميت بذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية أو تقاربها، والمثاني ما ولي المئين ، والمفصّل ما يلي المثاني من قصار السور، وسمّي مفصلاً لكثرة الفصول بين السور ببسم الله الرحمن الرحيم (٢)،"وفي القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس ودیابیج ورياض ، فميادينه ما افتتح بـ " الم" ، وبساتينه ما افتتح بـ "الر" ، ومقاصيره الحامدات ، وعرائسه المسبّحات ، ودیابیجه آل حم ، ورياضه المفصل وقالوا الطواسيم والطواسين وآل حم والحواميم "(٣).

فهذه أقسام القرآن الكريم، وميادينه المختلفة من شأنها أن " تجعل الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف أحسن وأفخم من أن يكون بابًا واحدًا، وكان أنشط وأبعث على التحصيل والحفظ؛ فمن حفظ سورة اعتقد أنه أخذ طائفة مستقلة من كتاب الله فيعظُم عنده ما حفظ، والتفصيل يُسبِّب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض،

(١) البرهان في علوم القرآن ١: ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه ١: ٢٤٥.

(٣) جما ل القُرَّاء وكمال الإقراء ٣٥، الإتقان في علوم القرآن ١٢٨.

وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم"(١)، ومن شان تقسيم القرآن الكريم إلى مجموعات من السور تسهيل فهمه وحفظه.

فهذه الأقسام والميادين تدُل على شدة عناية المسلمين بالقرآن، وتأثيره في نفوسهم؛ فهو رياض وبساتين، وعرائس ذات بهجة، يشرح النفس، ويأسر العقل بنظمه المحكم، ومعانيه الجليلة، وأساليبه المتنوعة الرصينة؛ فهذا كلام الله أفضل الكلام، " وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه "(٢)، فلنجعل كتاب الله نزهة للعقول، وراحة للنفوس.

مفهوم المسبِّحات:

التسبيح: تنزيه الله (٣)، وتنزيه الله جلّ ثناؤه من كل سوء، والتنزيه التبعيد، والعرب تقول سبحانه من كذا أي ما أبعده (٤)، فهذا القول يعني تبعيد الله عن صفات النقص، فالله مُنزّه عن كل نقص، وقد دلت فواتح بعض السور على هذا التنزيه.

جاء في البرهان في علوم القرآن في استفتاح القرآن بالثناء ،" والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح، ونفي وتنزيه من صفات النقص ، والإثبات نحو " الحمد لله " في خمس سور، و"تبارك" في سورتين: الفرقان و"الملك"، والتنزيه نحو:﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ** ﴾(الإسراء/ ١)، و﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾(الأعلى/ ١)، ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾(الحديد/ ١والحشر/ ١والصف/ ١)، و﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ**﴾(الجمعة/ ١والتغابن/ ١) كلاهما في سبع سور، فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء على الله نصفها لثبوت صفات الكمال ، ونصفها لسلب النقائص ، ﴿وسبّح لله﴾ هذه كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل ؛لأنه الأصل ، ثُمّ الماضي ﴿ سبّحَ لله﴾ في الحديد والحشر والصف؛

(١) البرهان في علوم القرآن١: ٢٦٥، وانظر: الإتقان في علوم القرآن ١٤٥.

(٢) سنن الترمذي ٥: ١٨٤ برقم ٢٩٢٦ ، سنن الدارمي ١: ٢١١٢ برقم ٣٣٩٩.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة، سبح.

(٤) مقاييس اللغة مادة، سبح.

لأنه أسبق الزمانين ، ثُـمّ المستقبل في الجمعـة والتغـابن ، ثُـمّ بـالأمر في سـورة الأعلـى، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها، وهي أربع المصدر ، والماضي ، والمستقبل ، والأمر المخاطب، فهذه أعجوبة وبرهان "([1]).

فالمسبِّحات" بكسر الباء نسبة مجازية " ([2])، سبع سور من القرآن الكريم افتتحت بالتسبيح وجاء الافتتاح بغير صيغة، فبدأ بما يدل على الحدث مطلقاً، مروراً بما مضى من الزمن ، وبما يستقبل منه ، وبالأمر الذي يعني أن الإنسان مأمور بالتسبيح في كل وقت وحين؛ تنزيهاً لله ﷻ. ومما يدل على أهمية التسبيح أن سبح ومشتقاتها وردت في ثلاثة وتسعين موضعاً من القرآن الكريم([3])، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ (البقرة / ٣٠)، وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**﴾(ق/ ٤٠) ، وقوله تعالى: ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ**﴾ (الروم/ ١٧) ، وقد أكدت السنة النبوية أهمية التسبيح الذي جاء مرتبطاً بالتحميد ، فقالﷺ:" من قال سبحان الله وبحمده في يومٍ مئة مرة حُطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر" ([4]) وقال أيضاًﷺ:" كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم"([5]).

---

(١) البرهان في علوم القرآن١: ١٦٤- ١٦٥ ، وانظر الإتقان في علوم القرآن ٦٢٥ ، وغرائب التفسير وعجائب التأويل ٦١٩.

(٢) تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي١ : ٢١٦٢ جاء في شـرح حـديث "كـان يقـرأ المسـبحات" لم أعثر على ضبطٍ للباء إلا في هذا المصدر.

(٣) انظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم ، باب السين: ٣٣٩ -٣٤٠ ، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ١١١.

(٤) صحيح البخاري٧: ٢١٥ برقم ٦٤٠٥ ، وصحيح مسلم ٦٨٩ برقم ٢٦٩١.

(٥) صحيح البخاري٧: ٢١٦ برقم ٦٤٠٦ ، وصحيح مسلم ٦٨٩ ، برقم ٢٦٩٤.

فضل المسبّحات:

ورد في فضائل القرآن آيات وأحاديث كثيرة، لا تخفى على المسلم فضلاً عن الباحث في كتاب الله عزّوجلّ، فهو أحسن الحديث، كما قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً** ﴾(الزمر/٢٣)، ومن علم علمه سبق ، ومن اعتصم به فقدهدي إلى صراط الله المستقيم(١).

والمسّبحات تقسيم من تقسيمات القرآن الكريم كما ورد ذكره، فضلها من فضله، وقد رُوي من الأحاديث التي تبين فضل المسبحات ما يأتي:

١ – "كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ المسبّحات، ويقول: فيهن آية كألف آية"(٢)، وقد ذكر ابن كثير الحديث ، وقال : والآية المشار إليها في الحديث والله أعلم قوله تعالى: ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (الحديد/٣) ، وقد نقل هذا القول السيوطي في الإتقان في علوم القرآن(٣).

٢- " قال رسول الله ﷺ: إني نُسيت أفضل المسبّحات ، فقال أُبي بن كعب : فلعلها سبح اسم ربك الأعلى "، قال: نعم"(٤).

٣- "أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ (اقرأ ثلاثاً من ذوات الر)، فقال الرجل: كبُر سني ، واشتد قلبي ، وغلظ لساني ، فقال:(اقرأ

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٧١٢ ، والبحر المحيط ١: ١١٦- ١١٧.

(٢) فضائل القرآن ومعالمه وآدابه ٢: ٦ برقم ٤٨٩، وسنن الترمذي ٥ : ١٨١ برقم ٢٩٢١ ، وسنن الدارمي ١: ٢١٥٣ برقم ٣٤٦٧ ، و الجامع لشعب الإيمان٤: ١٢٢برقم٢٢٧٤، والإتقان في علوم القرآن ٧١٩.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٤٤٣ ، والإتقان في علوم القرآن ٧١٩ .

(٤) فضائل القرآن ومعالمه وآدابه٢: ٦٨برقم ٤٩٩،وجمال القُراء وكمال الإقراء ٧٠،والإتقان في علوم القرآن٧٢٠.

ثلاثاً من ذوات حم)، فقال لرسول الله مثل مقالته الأولى، فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات)"([1]).

هذا ما ورد في فضل سور المسبحات مجتمعة، ومهما جاء في فضلها فهي قرآن يُتلى، فيه أجر عظيم لمن يتلوه ويتدبر معانيه ، فقد جاء في قولهﷺ:"الماهر في القرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران"([2]).

عددها وآياتها ومكان نزولها :

عدّ الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" المسبّحات سبع سور، ثم ذكرها في تعريف المسبّحات، وكذلك الكرماني في كتابه" غرائب التفسير وعجائب التأويل" وذكرها باسمها ([3]).

وفي تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي قال:" وهي السور التي أوائلها سبحان أو سبّح بالماضي أو يسبح أوسبِّح بالأمر، وهي سبعة: سبحان الذي أسرى، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن والأعلى"([4]).

وقد عدّها بعض العلماء ستاً، وجاء ذلك في سنن الدارمي بعد ذكر حديث المسبّحات في الحاشية فقال:" إن بعض العلماء كانوا يجعلون المسبّحات ستاً: سورة الحديد، والحشر، والحواريين" الصف" وسورة الجمعة، والتغابن، وسبح اسم ربك الأعلى" ([5])، فقد استثنيت سورة الإسراء.

---

(١) الجامع لشعب الإيمان ٤ : ١٢٧ برقم ٢٢٨٢ ، وجمال القُراء وكمال الإقراء٧١.

(٢) صحيح مسلم ١٩٣برقم ٧٩٨ ، وصحيح البخاري ٦: ٣٩١برقم ٤٩٣٧ روي بالمعنى نفسه مع اختلاف بعض الألفاظ.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ١٦٥، وغرائب التفسير ٦١٩ ، والكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم٧٩.

(٤) تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي٢١٦٢ ، وانظر موسوعة علوم القرآن: ٢٦٥- ٢٦٦.

(٥) سنن الدارمي ١: ٢١٥٣.

وقال القرطبي بعد أن ذكر حديث فضل المسبّحات:" يعنى بالمسبّحات الحديد، والحشر، والصف والجمعة، والتغابن"([1])، فهي عنده خمس سور كما ذكرها بأسمائها، وعدّها ابن كثير في تفسيره خمس سور؛ حيث روى في بداية تفسير سورة الحديد حديث فضل المسبّحات، ثُمّ في أول تفسير سورة التغابن، قال: هذه آخر سورالمسبّحات ([2])، فهذا يعني أنها خمس سور؛ فقد استثنى منها سورة الإسراء، وسورة الأعلى.

يلاحظ أن الرسولﷺ لم يذكر عدد المسبّحات في حديث فضل المسبّحات، ولكن بعض العلماء قالوا إنها سبع سور ذكروها بأسمائها ، وهناك قول بأنها ست سور ، وقول آخر بأنها خمس سور، ولكن أكثرالعلماء مالوا إلى أن المسبّحات سبع سور في روايتهم لحديث فضل المسبّحات ، مما يؤكد أن عددها سبع سور على الأغلب ؛" فالتسبيح في سورة الإسراء "سبحان" علم للتسبيح كعثمان للرجل، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره تقديره أسبح الله سبحان ثم نُزّل "سبحان" منزل الفعل، ودلّ على التنزيه البليغ"([3]) ، والمصدر يدل على فعل غير محدد الزمن، ثمّ تأكد تحديد الزمن بالماضي "سبح " في كل من سورة الحديد والحشر والصف، و"يسبّحُ " بالمضارع في سورتي الجمعة والتغابن، وبالأمر"سبّحْ" في سورة الأعلى ، فهذا تسبيح متواصل في جميع الأوقات ، وكل شيء في هذا الكون يسبح لله ﷻ ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ**﴾ (الإسراء/ ٤٤) ، فلِمَ لا تكون سورالمسبحات سبعًا؟ فكل واحدة منها افتُتحت بما يحث على التسبيح: المصدر والفعل بدلالاته الزمنية الثلاث، وهذا دليل على أهمية تسبيح الخالق، وتمجيد عظمته، وتنزيهه عن كل سوء في كل حين.

امّا عدد آيات كل سورة منها فقد ورد أنّ الإسراء مئة وإحدى عشرة آية، والحديد تسع وعشرون آية، والحشر أربع وعشرون آية، والصف أربع عشرة آية، والجمعة إحدى

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار ١٧٩ ، الجامع لأحكام القرآن ١٧: ١٧٩.

(٢) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٤٤٣ ، ٥٠٩.

(٣) الكشاف ٣ : ٤٩١.

عشرة آية، والتغابن ثماني عشرة آية، والأعلى تسع عشرة آية [1] ، وسور المسبحات مدنية باستثناء الأعلى والإسراء، فهما مكيتان ، وعند بعض العلماء إن بعض آيات الإسراء مدنية ، وإن سورة الأعلى مدنية لذكر الصلاة فيها[2].

فهذا عدد المسبحات وعدد آياتها، ومكان نزولها، فيلاحظ اشتراك أكثرها في مكان النزول، حيث إن خمسًا منها مدنية النزول، مما يعني أنه لا بُدّ أن يكون بينها صفات مشتركة في المضمون.

أسماء السور واختصاصها بماسُمّيت به :

قد يكون للسورة اسم واحد، وقد يكون لها أكثر من اسم " فينبغي البحث عن تعداد الأسامي، هل هو توقيفي، أو بما يظهر من المناسبات، فإن كان الثاني فلن يُعدم أن يُستخرج من كل سورة معانٍ كثيرة تقتضي اشتقاق أسماء كثيرة، وهو بعيد"[3]، امّا السيوطي فيقول:" ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف"[4].

فهذا يعني أن السور قد يكون لها اسم توقيفي، واسم مشتق من المعاني التي تضمنتها؛ فسورة الإسراء تسمى أيضاً سبحان وبني إسرائيل، والإسراء اسم توقيفي، والحديد لم تعرف إلا بهذا الاسم، والحشر اسم توقيفي، ومن أسمائها غير التوقيفية بني النضير، فقد أخرج البخاري عن سعيد بن جبير، قلت لابن عباس سورة الحشر، قال: "قل سورة بني النضير. والصف تسمّى سورة الحواريين وهذا هو الاسم التوقيفي، وتسمى سورة

---

(١) انظر جمال الإقراء: ٢٢١- ٢٢٦ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢ : ٤٠٩ -٤٥١، ذكر عدد الآيات في بداية تفسير كل سورة ، والإتقان في علوم القرآن ١٤٨-١٥١.

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن ١: ١٩٣- ١٩٤ ، والإتقان في علوم القرآن ٣٤، ٤٠ ، ٤١، ٤٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١ :٢٧٠ ، والإتقان في علوم القرآن ١٢٥.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١١٩.

عيسى، أمّا الجمعة والتغابن والأعلى فلم تذكر إلا بهذه الأسماء [1] " وينبغي النظر في وجه اختصاص كل سورة بما سُميت به ولا شك أن أكثر العرب تراعي في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مُستغرَب ما يكون في الشيء من خَلْق أو صفة تخصه، أو تكون معه أحكم أو أكثر لإدراك الرائي للمسمّى"[2].

فهذا القول يؤكد أن كل سورة اختصت بما سُميت به ، فسورة الإسراء اشتملت على خبر إسراء النبيﷺ، وتسميتها ببني إسرائيل يعود لاشتمالها على بعض أخبار بني إسرائيل، وسبحان لاستهلالها بسبحان، وسورة الحديد اشتملت على ذكر الحديد ، وسميت الحشر بهذا الاسم لاشتمالها على لفظة الحشر أول حشر اليهود وإخراجهم من ديارهم، وسورة الصف ذكر فيها الصف والاصطفاف للقتال، وسورة الجمعة ذكر فيها يوم الجمعة الذي يجتمع فيه المسلمون للصلاة ، وسورة التغابن نسبة إلى هذه الكلمة التي ذكرت فيها، والتغابن اسم من أسماء يوم القيامة ، وسورة الأعلى وصِف فيها اسم الله بالأعلى .

استهلالها بالتسبيح، والمناسبة بين بداية السور وخواتيمها :

كل سورة من سور المسبحات استهلت بالتسبيح، فما علاقة ذلك باسم السورة ومضمونها؟

فلننظر أولاً إلى سورة الإسراء حيث يقول الله تعالى:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾ (الإسراء/١) ، فمن أسرى بعبده ؟ إنه الله أسرى به في رحلة تُعدُّ آية من آياته، ومعجزة من معجزاته، فهي غيرما أَلِفَه العرب في رحلاتهم؛ حيث كانت في لحظة من الزمن، رأى فيها الرسول ﷺ ما رأى ، واصفاً الأقصى بدقة متناهية ، ألا يستحق- سبحانه وتعالى- هذا التسبيح والتمجيد والتعظيم؟

---

(١) انظر جمال الإقراء ٣٧ والإتقان في علوم القرآن ١٢٣- ١٢٤ ، وتاريخ القرآن الكريم٩٠، ١٠١،٩٩، والحديث في صحيح البخاري٥ : ٢٧ برقم ٤٠٢٩ ، ولم أجد تسمية سور الصف بسورة عيسى إلا في روح المعاني ٢٨: ٨٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن١ : ٢٧٠ ، والإتقان في علوم القرآن ١٢٥.

بلى،" فأن تبدأ السورة بالتسبيح أليق حركة نفسية تتسق مع جو الإسراء اللطيف، وأليق صلة بين العبد وربه"[1].

وسورة الحديد التي قال الله فيها:﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاس** ﴾ (الحديد/ ٢٥) ، هذا هو الحديد " جعله الله رادعًا لمن أبى الحق ، ففيه السيوف والحراب ونحوها، ومن جهة أخرى جعل الله فيه منافع من آلات يستعين بها الناس في معاشهم"[2]، فمن أوجد الحديد على هذه الصورة وعلم الإنسان الانتفاع الدائم منه بصناعة الآلات والأسلحة الحديثة المتجددة ، ألا يستحق تسبيحًا دائمًا على هذه النعمة من القوة والشدة والنفع ؟

وفي سورة الحشر يقول سبحانه وتعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا**﴾(الحشر/ ٢) ، إن إخراج اليهود من ديارهم وإعطاءها للمسلمين المسبحين لم يكن متوقعًا من المسلمين، ومن اليهود الذين ظنوا حصونهم مانعتهم كما جاء في الآية[3] ، وهذا الحشر الذي "يعني أول حشرهم إلى الشام ، أول حشرهم يوم القيامة ؛ لأن المحشر يكون في الشام."[4] فهذا حشر لليهود وإخراج لهم من أرض الإسلام جزاء فسادهم ، ونصر للمسلمين أثناء قيام دولتهم ، ألا يستحق تسبيح الله وتمجيده وتعظيمه سبحانه وتعالى؟

وفي سورة الصّف يقول الله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾(الصّف/ ٤) ، فهذا " إخبار من الله تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى يقاتلون من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه الظاهر على سائر الأديان"[5]، فهذه المحبة من الله وهذا الاصطفاف كبنيان يشد

(١) في ظلال القرآن ٤ : ٢٢١٢ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣ : ٤٥٥.

(٣) انظر في ظلال القرآن ٦ : ٣٥١٧.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ٢٨: ٣٩.

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٣ : ٤٩٢.

بعضه بعضًا ، والذي يعلي كلمة الله ، ويوحد كلمة المسلمين ، ويرفع من شأنهم ، ألا يستحق كل ذلك تسبيحًا وتمجيدًا وتعظيمًا لله على هذه المحبة والنعمة ؟

وهناك نوع آخر من الاصطفاف في صلاة الجمعة، فيقول الله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(الجمعة/٩) ، فهذا سعي إلى ذكر الله ، وترك للبيع فيه فرصة لاتصال المسلم بربه وراحة للنفس من عناء العمل ، "فهذه دعوة فيها توازن يتم به المنهج الإسلامي"(١) ، فهذا اليوم العظيم الذي ميّز الله به المسلمين عن سائر الأمم في أداء صلاتهم مجتمعين مصطفين، وكذلك هذا التوازن يستحق تسبيح الله وتعظيمه.

وفي سورة التغابن يقول الله تعالى:﴿ **يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾ (التغابن/٩) ،" فهذا يوم الجمع ، يُجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر، يوم التغابن "(٢) ، وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثُمّ صيرورتهم إلى الجحيم ، وكأنما كان هناك سباق ففاز فيه المؤمنون ، وهُزم الكافرون" (٣) ، فأمام هذا المشهد العظيم في يوم الجمع والتغابن لا يملك الإنسان إلا أن يسبح لله ممجدًا قدرة الله وعظمته.

وفي سورة "الأعلى" يقول الله تعالى : ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى**﴾ الأعلى/١-٢)، فهذا خلق فيه بديع الصنعة ودقتها ؛ فهو خلق الله الأعلى ،" والأعلى صفة تطلق التطلع إلى الآفاق التي لا تتناهى ، وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى ، وتتناسق مع التمجيد والتنزيه ، وهو في صميم الشعور بصفة الأعلى"(٤).

---

(١) في ظلال القرآن ٦ : ٣٥٦٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٥٠٩.

(٣) في ظلال القرآن ٦: ٣٥٨٨.

(٤) في ظلال القرآن ٦: ٣٨٨٣.

فهذه سور تناسقت أسماؤها مع مضمونها واستهلالها بالتسبيح ، فكل اسم منها يستحق تسبيحًا وتنزيهًا وتمجيدًا يتردد في الفضاء الرحب ، ينبعث من صميم الشعور بجلال الله ، وعظيم قدرته، فسبحان الله عدد خلقه ، وزنة عرشه .

وكما هو مُتبيِّن ومُتّضح فإن سور المسبّحات استُهلت بالتسبيح الذي يعني تمجيد الله وتعظيمه وتنزيهه عن صفات النقص ، فهل من تناسب بين هذا الاستهلال والخاتمة ؟ ربما نجد تناسبًا واضحًا في بعض هذه السور ، إذا نظرنا إلى قول الزركشي:" ومن أسرار القرآن مناسبة فواتح السور وخواتمها"(1).

وقد ربط بين الخواتم والفواتح بقوله :" الخواتم مثل الفواتح في الحسن"(2) ، فسورة الإسراء التي افتتحت "بسبحان" جاء مطلعها منسجمًا مع خاتمتها ، فبدأت بتحميد الله وتعظيم شأنه ؛ لقدرته على مالايقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ، ولاربّ سواه ، أسرى بعبده ، وختمت بالحمد لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحُسنى، نزه نفسه عن النقائص ، فقال تعالى:﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ** ﴾ (الإسراء/ 111)"(3) ، فمن يستحق التسبيح يستحق الحمد.

وسورة الحشر ختمت بقوله تعالى :﴿ **هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾(الحشر/ 24) ، فهذه الخاتمة التي تذكر صفات الله العظيمة وأسماءه الجليلة تتناسب مع البداية التي تطالعنا بتسبيح ما في السموات والأرض لله العزيز الحكيم ، وتتصل بتكرار التنزيه من كل نقص وذلك في كلمة "يسبح". ومن الملاحظ أن هذا اتصال واضح بين بدايتي هاتين السورتين وخاتمتيهما من خلال تكرار البداية .

أمّا السور المتبقية ففيها من التناسب ما ذُكر في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ففي نهاية تفسير كل سورة يذكر تناسبًا بين فاتحتها وخاتمتها ، ففي سورة الحديد جاء

(1) البرهان في علوم القرآن 1 : 185

(2) البرهان في علوم القرآن 1: 182 ، الإتقان في علوم القرآن : 628

(3) مختصر تفسير ابن كثير 3 : 354 ، 406

التناسب في انطباق آخرها على أولها ، فصاحب الفضل العظيم في قوله تعالى:﴿ **وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (الحديد/ ٢٩) ، الله المتفضل على عباده نزهه التنزيه الأعظم جميع ما في السموات والأرض، وربما نستطيع القول إن من يستحق التنزيه متفضل على عباده ، فهومن يملك هذا الفضل العظيم .

وفي سورة الصف فقد وهم الكفرة بنقص نصرالله أولياءه ، حيث قال سبحانه:﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾(الصف/ ١٤)، فاقتضى ذلك الأمر تنزيه الله عن كل نقصان .

وفي سورة الجمعة رجع آخرها على أولها بما هو من شأن الله في توزيع الرزق على عباده ، وتبكيت من أعرض عن خطبة الرسولﷺ ؛لأنه لا يدعوهم إلا إلى الصلاة والوعظ و ذكر الله ، وهذا تنزيه الله وتسبيحه([١]).

وسورة التغابن ختمت بصفات الكمال ، وإحاطة علم الله على افتتاحها بتنزيه الوجود لله عزّوجلّ، وفي آخر سورة الأعلى أعلم الله- سبحانه وتعالى- أنه لم يهمل الخلق، فحثهم على التزكي أي التطهر، وعلى الذكر، لأنه لم يخلقهم سدى ، فهو منزه عن النقص الذي افتتحت به السورة ([٢]).

إن التناسب بين بداية السورة وخاتمتها اعتنى به عدد من علماء القرآن مثل الزركشي، فقد ذكرما قيل في التناسب "المناسبة أمر معقول إذا عُرض على العقول تلقته بالقبول"([٣])، وذكره السيوطي، وكذلك ذكره بعض المفسرين، ولم يغفل ذكره في نهاية تفسير كل سورة برهان الدين البقاعي في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، ولعل مثل هذا التناسب أمر اجتهادي يعود إلى الفهم والقبول، والله أعلم ، فالقرآن لا تنقضي أسراره ، ولا تنتهي عجائبه.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧: ٤٧٣ ، ٥٨٩ ، ٦٠٤

(٢) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨: ٢٢ ، ٤٠٣

(٣) البرهان في علوم القرآن ١: ٣٥

ترتيب سور المسبحات والتناسب بينها :

سننظر في ما جاء في ترتيب سور القرآن الكريم لتعرّف ترتيب سورالمسبّحات، فترتيب سور القرآن على ما هو عليه الآن اختلف فيه ، فذهبت طائفة من العلماء إلى أنه توقيف من النبيﷺ ، ومنهم من قال إنه من فعل الصحابة ، ومنهم من قال بأن كثيرًا من السور عُلم ترتيبها في حياة النبي ﷺ كالسبع الطُّوَل والحواميم والمفصل([1]) ، وذهب إلى ذلك السيوطي في كتابيه الإتقان في علوم القرآن، وأسرار ترتيب القرآن ، وابن الزبير الثقفي في كتابه البرهان في تناسب سور القرآن.

ومما يدل على أن ترتيب القرآن توقيفي أن جبريل كان " يوقف رسول الله ﷺ على موضع السورة والآية ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد ﷺ عن ربّ العالمين "([2]).

ومما يدل على أن ترتيب سور القرآن توقيفي" أن الحواميم رتبت ولاءً كالطواسين، ولم ترتب المسبّحات ولاءً ، بل فُصل بين سورها، ولو كان هذا الترتيب اجتهاداً لذكرت المسّبحات ولاءً ([3])، وأكد ذلك السيوطي بقوله :"ولولا أنه توقيفي لحكمة لتوالت المسّبحات"([4]).

وترتيب سور المسبحات توقيفي لا اجتهاد فيه ؛ لأن ترتيب سور القرآن كلها توقيفي، ولو كان غير ذلك لتوالت المسبِّحات شأنها شأن الحواميم والطواسين ، فجاء ترتيبها غير متتالٍ؛ ففصل بينها بسور أخرى لم تفتتح بالتسبيح " ليكون ذلك أدل على قصد التأكيد من حيث شدة الاعتناء بالذكر، وإن وقع فصل ويكون التأكيد أكثر تنبيهاً ، وأعظم

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن :٢٥٧ ، والإتقان في علوم القرآن : ١٣٧، وأسرار ترتيب القرآن : ٦٨ ، والبرهان في تناسب سور القرآن : ٤٦

(٢) التذكار في أفضل الأذكار ٢٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١٣٩.

(٤) أسرار ترتيب القرآن ٧٢.

تذكيراً[1] ، هذا تفسير للفصل بين المسبّحات ، ربما يكون اجتهاديًا ، والله أعلم ، وقد يكون هذا الفصل لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى.

وبحث بعض العلماء عن تناسب بين السور، يقول الزركشي: "لترتيب وضع السور في المصحف أسباب تُطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم : أحدها بحسب الحروف كما في الحواميم، وثانيها لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة ، وثالثها للوزن كآخر تبت وأول الإخلاص ، ورابعها لمشابهة جملة السورة لجملة أخرى ، كالضحى وألم نشرح"[2] ، فلا بد من تناسب بين السور، ونظروا إلي هذا التناسب على أنه علم فقالوا "المناسبة علم شريف"[3] ، ولكن قلّ اعتناء المفسرين به لدقته ، ومن المفسرين الذين اعتنوا به الفخر الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، والألوسي في تفسيره روح المعاني ، فكان يذكر في بداية تفسير كل سورة مناسبتها لما قبلها ، وبرهان الدين البقاعي في تفسيره نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، وأفرد السيوطي في ذلك الأمر كتابًا أسماه أسرار ترتيب القرآن ، ووضع ابن الزبير الثقفي كتابه البرهان في تناسب سور القرآن في هذا الباب من العلم، فبحثوا عن رابط بين السور ربما يكون لسبب من الأسباب التي ذكرها الزركشي في ترتيب وضع السور، فقد ذكر غير وجه للتناسب بين السور، ومما جاء في تناسب سورالمسبّحات ما يأتي:

الإسراء: ظهر في وجه اتصالها بسورة النحل أنه سبحانه لمّا قال في آخر النحل: ﴿ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ (النحل / ١٢٤) ، فسّرَ شريعة أهل السبت، وذكر عصيانهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، واستفزازهم للنبي ﷺ ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، ولماكانت هذه السورة مصدرة بقصة تخريب المسجد الأقصى ؛ أُسري بالمصطفى إليه ، تشريفاً له بحلول ركابه الشريف[4] ، وهناك تناسب يبدو في سورة النحل في قوله

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور٧: ٥٩١.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١: ٢٦٠ ، والبر هان في تناسب سور القرآن ٥٦ ، وانظر أسرار ترتيب القرآن ٧١.

(٣) البرهان في علوم القرآن ١: ٣٥، والإتقان في علوم القرآن ٦٣٠.

(٤) انظر: أسرار ترتيب القرآن : ١١٣ ، روح المعاني ١٥: ٢.

تعالى: ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (النحل/ ١٢٠) حين جعل من إبراهيم أمة وحده ، وأمر نبيناﷺ باتباعه بقوله تعالى:﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾(النحل/ ١٢٣)، فأعقب ذلك بسورة الإسراء التي تضمنت من خصائص النبيﷺ إمامته للأنبياء ، وفيهم إبراهيم وموسى عليهما السلام ، وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ، مما يؤكد فضله على سائر الأنبياء وأنه سيد ولد آدم ([1]) ، هذا يعني أن محمد ﷺ أفضل الأنبياء وسيد المرسلين ، أمّا مناسبة سورة الإسراء للكهف "فافتتاح تلك بالتسبيح وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان في القرآن بحيث يسبق التسبيح التحميد"([2]) ، وفي قوله تعالى: "وقل له الحمد" في خاتمة الإسراء ، وقوله في فاتحة الكهف:"الحمد لله" يظهرالتناسب واضحًا ومقبولاً، فالإسراء خُتمت بالحمد والكهف بُدئت به.

الحديد: وجه اتصالها بالواقعة أنه لما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيه الله سبحانه وتعالى جاءت الحديد لتقريرهذا التنزيه قدمت بذكرالتسبيح ، وإن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر ، وكأنه قيل:﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾ (الواقعة/ ٩٦) ،لأنه ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ (الحديد/ ١)، فالواقعة خُتِمت بالأمربه ، والحديد بُدِئت بذكرالتسبيح ([3]) ، وفي تفسيرآخر للتناسب أنه قد ورد توبيخ وتقريع المكذبين المنكرين قدرة الله على الخلق في قوله تعالى:﴿ **نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ۞ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾ (الواقعة/ ٥٧- ٥٩)، فأعقب ذلك تنزيهه ﷻعن سوء ما انتحلوه وضلالهم فيما جهلوه بقوله تعالى:﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾(الواقعة /٧٤،٩٦)، ثم أعقب ذلك بقوله تعالى:﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾(الحديد/ ١)([4]).

---

(١) انظر: البرهان في تناسب سور القرآن ١٢٤.

(٢) أسرار ترتيب القرآن ١١٤.

(٣) انظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور٧: ٤٣٣، وأسرار ترتيب القرآن ١٣٥، و روح المعاني ٢٧: ١٦٤

(٤) انظرالبرهان في تناسب سور القرآن ١٨٢.

الحشر: جاء في وسط المجادلة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾(المجادلة/ ١٤) ، وهم اليهود، فذكر سبحانه سوء سريرتهم وعظيم جراءتهم، فحصل تنفير المؤمنين عنهم ، وإعلامهم بأن بغضهم من الإيمان ، وودهم من النفاق في قوله تعالى:﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة/ ٢٢) ، ثُمّ أُتبعت بسورة الحشر التي افتُتحت بقوله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (الحشر /١) ، فقد نزه نفسه عزّوجلّ لعظيم اعتدائهم وعصيانهم (١) ، ويرد مثل هذا التنزيه بعد ذكر جريمة تقع من العباد ، وعظيمة يرتكبونها، وآخرسورة المجادلة نزل فيمن قُتِل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر، وأول الحشر نازل في غزوة بني النضير، وهي عقبها وهذا نوع من التناسب(٢) ، وفي الأولى "المجادلة" ذكر حال المنافقين واليهود، وتولي بعضهم بعضًا ، وفي هذه "الحشر" ذكر ما حلّ باليهود وعدم إغناء تولي المنافقين إياهم(٣).

الصف : افتُتحت بالتسبيح لما ختمت به سورة الممتحنة في قوله تعالى: ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾(الممتحنة /١٣)، وكما ذُكر في الحشر فارتكاب الجرائم يتبع بالتنزيه(٤) ، وفي سورة الممتحنة ذكر الجهاد في سبيل الله ، وبسطه في هذه السورة "الصف" أبلغ البسط ، وقد اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفي ذلك تأكيد النهي عن اتخاذ الكفار أولياء(٥).

الجمعة: "اختُتمت سورة الصف بالثناء على الحواريين في حُسن استجابتهم ، وجميل إيمانهم ، وقد أُمرالمؤمنون بالتشبه بهم في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ﴾(الصف/ ١٤) ، فهذا يوهم فضل أتباع عيسى عليه السلام على أتباع محمد ﷺ ؛ فأتبع ذلك بذكر الأمة والثناء عليها ، فافتتحت بالتنزيه عمّا أشار إليه قوله تعالى:﴿ وَكَفَرَت

---

(١) انظر البرهان في تناسب سور القرآن ١٨٤.

(٢) انظر: أسرار ترتيب القرآن ١٣٦.

(٣) انظر:روح المعاني ٢٨ : ٣٨.

(٤) انظر:البرهان في تناسب سور القرآن ١٨٦.

(٥)انظر: أسرار ترتيب القرآن ١٣٧ ، و روح المعاني ٢٨ : ٨٣

طَّائِفَةٌ﴾(الصف/ ١٤)، فإنهم ارتكبوا العظيمة ، وقالوا بالبنوة، فنزه سبحانه نفسه عن ذلك، ثُمّ قال:﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾(الجمعة/ ٢)"([1]).

أمّا السيوطي فقد ذكر غير وجه للتناسب بين سورتي الصف والجمعة فقال : إنه – تعالى- لّما ذكر في الصف حال موسى عليه السلام مع قومه ، وأذاهم له ، ذكر في هذه السورة (الجمعة) الرسولﷺ وفضل أمته؛ تشريفًا لهم ، وذكر في الصف على لسان عيسى قوله تعالى:﴿ **بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾ (الصف/٦) ، قال في الجمعة : ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ**﴾(الجمعة/ ٢) ، وهذا وجه حَسن في الربط ، ولّما ختم سورة الصف بالأمر بالجهاد ، ختم سورة الجمعة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية ، وفي السورتين إشارة إلى الاصطفاف ، فكان الاصطفاف مناسبة بين السورتين "الصف والجمعة" فالصفوف تُشرع في موضعين:القتال في سورة الصف، والصلاة في سورة الجمعة ([2]).

التغابن: لّما بسط في سورة الجمعة حال من حمل التوراة من بني إسرائيل ثُمّ لم يحملها ، وحال المنافقين في سورة المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، وقلوبهم كفر وعناد ، وما بين من خروج الفريقين عن سُنن السبيل المستقيم ، وتنكبهم هدي الدين القويم ، فافتتحت السورة بالتسبيح لعظيم ما ارتكب المنافقون من سوء جهلهم ، ووقع فيه اليهود من حيرة وضلال([3]).

الأعلى:" لّما قال- سبحانه وتعالى- مخبرًا عن عَمَه الكفار في ظلام حيرتهم "إنهم يكيدون كيدًا" في سورة الطارق ، وكان وقوع هذا من العبيد المُحاط بأعمالهم ، ودقائق أنفاسهم ، وأحوالهم من أقبح مُرتكَب ، وأبعده عن المعرفة بشيء عن عظيم أمر الله الخالق، أتبع- سبحانه وتعالى- ذلك بأمر نبيهﷺ بتنزيه ربّه عن شنيع اعتدائهم وافترائهم،

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ١٨٧.

(٢) انظر: أسرار ترتيب القرآن : ١٣٧- ١٣٨ ،و روح المعاني ٢٨ :٩٢.

(٣) انظر:البرهان في تناسب سور القرآن ١٨٨- .١٨٩.

فقال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾(الأعلى/١)؛ أي نزهه عن قبيح مقالهم"(١) ، وبالإضافة إلى ذلك ففي سورتي الطارق والأعلى ذكر لخلق الإنسان والنبات ، وإن ما في هذه السورة "الأعلى" أعم من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات(٢).

هذا ما ذُكر من وجوه التناسب بين السور الذي يرجع إلى رابط بينها في المعنى أو اللفظ ، قد يتناسب مع سياق السورة ، ومنه ما يقبله العقل ويأنس به الفهم ، ومما قاله الزركشي في التناسب: "إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها ، ثُمّ هو يخفى تارة ويظهر أخرى ، كافتتاح سورة الحديد مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به"(٣).

وربما هناك من التناسب ما هو مقنع ويسهل قبوله ، ومنه ما هو متكلف بعض الشيء فيصعب قبوله فيأتي متكلفًا مصطنعًا " فمعيار الطبع والتكلف في إثبات المناسبة بين السور يعود إلى مدى التماثل والتقارب أو البعد والتنافر بين الموضوعات، فإن تماثلت وتقاربت فالتناسب معقول مقبول ، وإن تنافرت وتباعدت فلا سبيل للقول بالتناسب"(٤).

ومع ذلك فقد اهتم بعض العلماء اهتمامًا فائقًا بالتناسب بين الآيات والسور في تفسيره آية آية، وسورة سورة ، كتفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ، ومنهم من ذكر شيئًا منه في تفسيره كالفخر الرازي في مفاتيح الغيب ، ومنهم من اعتنى به اعتناء مستقلاً عن التفسير، كالسيوطي في كتابه أسرار ترتيب القرآن ، وابن الزبير الثقفي في كتابه البرهان في تناسب القرآن، مما يعني ميل بعض العلماء إلى هذا العلم والتوسع فيه حتى جاء في بعض الأحيان متكلفًا ، ويرى بعض العلماء المحدثين ، ومنهم صبحي الصالح قلة جدوى علم المناسبة فيقول: "وما نظن احتفال المفسرين قليلاً بهذا النوع لدقته وحسب بل لقلة جدواه وكثرة التكلف فيه"(٥).

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ٢٠٥.

(٢) انظر أسرار ترتيب القرآن ١٤٩ ، روح المعاني جزء عمّ : ١٠٢

(٣) البرهان في علوم القرآن ١: ٣٨.

(٤) البرهان في تناسب سور القرآن ٦٩.

(٥) مباحث في علوم القرآن ١٥٦.

ترى الباحثة أن التناسب بين فواتح السور وخواتمها وبين السور قد يأتي طبيعيًا غير متكلف وفق ما يقتضيه السياق، لا يُبحث عنه كما هو ظاهر في المناسبة بين خاتمة سورة الواقعة وبداية سورة الحديد، وقد يأتي متكلفًا إذا بحث الإنسان عنه فتحار العقول في قبوله أحياناً .

وخلاصة القول في نهاية هذا الفصل:

- المسبحات تقسيم من تقسيمات القرآن مثل الحواميم والطواسين وتستهل بالتسبيح.
- يستدل على فضل المسبّحات من الأحاديث التي رُويت عن النبيﷺ، فشأنها شأن سور القرآن فيها من فضل وأجر التلاوة الذي أعده الله لمن يتلو القرآن ويتدبر معانيه.
- يمكن القول إن عدد المسبحات سبع سور ؛ لأن كل سورة منها بدأت بالتسبيح ، ومعظم ما ورد في ما تقدم يؤكد ذلك العدد ، فحديث فضل المسبّحات ذكر في أكثر من مصدر مع إضافة عدد المسبحات السبع .
- أسماء سورالمسبّحات تتفق مع مضمون السور التي سُميت بها ، ويتناسب مع الاستهلال بالتسبيح.
- سور المسبحات مدنية النزول باستثناء سورتي الإسراء والأعلى مع وجود بعض الآيات المدنية في سورة الإسراء ، والقول بأن سورة الأعلى مدنية عند بعض العلماء.
- ترتيب سورالمسبّحات لم يأتِ متتاليًا ، ففصل بينها بسور أخرى ، لأن ترتيب سور القرآن عند معظم العلماء توقيفي.



الفصل الثاني

الدراسة الدلالية

القرآن الكريم كتاب معجز بمضمونه وأسلوبه ، فقد تضمن المعاني العظيمة بأساليب في غاية الرصانة ، فإعجازه في شرف معانيه ، ورصف كلماته ، ونظم آياته ، ومتانة أساليبه ، وترتيب سوره ، قال الرماني يصف القرآن الكريم:" فجاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مُضمنًا أصح المعاني"[1]، فهذا وصف دقيق لثلاث سمات تميز بها القرآن ، فلا أفصح منه لفظًا ، ولا أحسن منه نظمًا ، ولا أصح منه معنىً ، فكل ذلك أعجز أفصح الفصحاء ، فآمن به العقلاء ، وانكبّ على دراسته العلماء ، ليكتشفوا بعضاً من أسراره وعجائبه التي لا تنتهي، فما من سورة أو آية فيه إلا وفيها من المعاني والدلالات العظيمة الشريفة ، ومن هذه السور المسبّحات التي ننظر في بعض دلالاتها، فقد تضمنت الكثير من الدلالات التي لا يمكن الإحاطة بها، لذا ستقتصر الدراسة على الدلالات المشتركة، ثُم المفردة التي انفردت بها كل سورة من سور المسبحات.

أ- الدلالات المشتركة:

من الدلالات المشتركة بين المسبّحات ما يأتي:

- الاستهلال بالتسبيح في السور السبع.
- وحدانية الله والدعوة إلى الإيمان به -عزّ وجلّ- في السور السبع.
- تقرير البعث والحساب في خمس سور: الإسراء ، والحديد ، والحشر، والصف، والتغابن.
- الحديث عن بني إسرائيل في خمس سور: الإسراء ، والحديد ، والحشر، والصف ، والجمعة .

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٢٧.

- الحث على الإنفاق والترغيب فيه في خمس سور: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والتغابن.

- التشريع والفرائض في أربع سور: الإسراء ، والحديد ، والصف ، والحشر.

وأول هذه المضامين والدلالات:

١- الاستهلال بالتسبيح ابتداءً بسورة الإسراء وانتهاءً بسورة الأعلى :

إن كلّ سورة من سور المسبحات السبع استُهلت بآية عظيمة المعنى ، تؤكد تسبيح الوجود كلّه لله العظيم القدرة ، البديع الخلق ، العزيز في ملكه ، المتصرف بحكمة في تدبير كونه ، فسبحان الله الذي أسرى بعبده ، وسبحان الذي خلق السماوات والأرض، فسبّح كل ما فيهما لله ومجّده ، فسبحان ربي الأعلى في ملكوته ، وما دلالة هذا التسبيح إلا على وحدانية الله الذي لا يُسبَح سواه ، والتسبيح التنزيه ، والمرُّ السريع في الماء وفي الهواء ، وتنزيه الله ، وأصله المرُ السريع في عبادة الله ، وجعل التسبيح عامًا في العبادات([١])، وسبحته: بَعَّدْتُه عن السوء ، ومنقول من سبح إذا ذهب وبعُد([٢]) ، فالتسبيح تنزيه الله جل ثناؤه وتبعيده عن كل سوء ونقص.

وقد اختُلف في التسبيح أحقيقة هو أم مجاز؟ فقال ابن جزي الكلبي:"يحتمل أن يكون حقيقة أو يكون بلسان الحال ؛ لأن كل ما في السماوات والأرض دليل على وجود الله وقدرته وحكمته ، والأول أرجح لقوله تعالى:﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾(الإسراء/ ٤٤)([٣]) ، ويميل إلى هذا الرأي ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز، فيرى "أنه لو كان التسبيح من أثر الصنعة لكان أمرًا مفهومًا ، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه"([٤]) ، ويرى القرطبي أن الكل يسبح ، وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة سبح.

(٢) الكشاف ٦: ٤٢.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٠٩

(٤) المحرر الوجيز٣: ٤٥٩.

الحياة ، والإنطاق بالتسبيح[١]، ومنهم من يرى أن التسبيح بالقول لا يكون إلا من العقلاء ، ويكون من الجماد تسبيح دلالة ، بمعنى أنها تدل على تعظيمه وتنزيهه[٢].

فلِمَ لا يكون التسبيح تسبيح مقال على الحقيقة لا على المجاز أو من أثر الصنعة ؟ فقدرة الله أعظم مما يتصور العقل البشري ، ولِمَ لا ينطق كل ما في الوجود بتنزيه الله وتعظيمه؟ فهو العزيز الحكيم القادر على إنطاق كل الوجود ، وهو على كل شيء قدير.

وقد جاء الحث على التسبيح بصيغ مختلفة :

- **الحث على التسبيح بصيغة المصدر، يقول تعالى:**

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هو السميع البَصِير﴾ (الإسراء/ ١).

فبدأ بالمصدر سبحان ؛ لأنه الأصل على اعتبار أنه أصل الاشتقاق ، والبدء بالمصدر يدل على التنزيه البليغ الثابت المطلق غير المقيد بزمان أو مكان أو أي شيء[٣] فهذا يعني أن التسبيح في كل وقت وحين، وجاءت الفاصلة " السميع البصير" تتسق مع مضمون الآية ، فالسميع البصير وعيد من الله للكفار لتكذيبهم محمدًاﷺ في أمر الإسراء فهي إشارة بليغة إلى ذلك ، أي هو السميع لما تقولون البصير بأفعالكم"[٤] ، وفي تفسير آخر قيل السميع لأقوال محمد ﷺ البصير بأفعاله فيكرمه ويقربه ، وإلى ذلك المعنى يذهب الفخر الرازي[٥] ، وربما كان المعنى الأول أقرب إلى السياق من المعنى الثاني ؛ لما عُرف من تكذيب المشركين للرسول ﷺ ويلاحظ تقدم السمع على البصر؛ فهذا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٢٠ .

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٩: ٢٠٧.

(٣) انظر: الكشاف ٣: ٤٩١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣: ٤٣٦.

(٥) التفسير الكبير٢٠: ١٤٨، و انظر الكشاف ٣: ٤٩٣

تقديم تشريف وتفضيل للسمع [1] ، وقد ورد هذا التقديم في مواضع كثيرة في القرآن الكريم ، يقول تعالى:﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾. (الإسراء/٣٦) ، وقد قال ابن جني:" ذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها من الأصوات المسموعات [2] ، مما يؤكد أن السمع يتقدم على البصر، فلا يمكن لمن لا يسمع أن يتعلم النطق، فيصف الله المنافقين في قوله تعالى:﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾ (البقرة/١٨) ، فالأصم الذي لا يسمع ، فهو أبكم لا يتكلم .

- **الحث على التسبيح بصيغة الماضي ، يقول تعالى:**

﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ العزيز الحكيم** ﴾(الحديد/ ١).

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(الحشر/ ١).

﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ العزيز الحكيم**﴾(الصف/ ١).

جاء الحث على التسبيح بصيغة الماضي سبَّحَ ؛ ليؤكد تحقق التسبيح حيث إن الفعل الماضي يفيد تحقق وقوع الفعل[3] ، وتكرار هذه الصيغة ثلاث مرات يعني نهاية الإثبات المؤكَّد لوقوع التسبيح من كل الوجود[4] ، وبإعادة النظر في السور التي تبدأ بصيغة الماضي يلاحظ ذكر القتال فيها ، ففي سورة الحديد يقول تعالى:﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ**﴾(الحديد/ ١٠) ، وفي سورة الحشر كان الحديث عن إخراج اليهود من حصونهم ، وذكر القتال في أكثر من آية ، يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ (الحشر/ ١١)،

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤٤٧.

(٢) الخصائص ١: ٤٦.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ١: ١٦٥.

(٤) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧: ٥٩٠.

وفي سورة الصف يقول تعالى:﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مرصوص**﴾(الصف/ ٤) (١) ، ورغم أن القتال ذُكر في هذه السور الثلاث الحديد ، والحشر، والصف إلا أن الغرض من الآيات الحث على التسبيح بغض النظر عن صيغة التسبيح ، وعن مجيء القتال في السور، فالتسبيح جاء بصيغ مختلفة ، والموضوعات المذكورة في سور المسبحات متنوعة ، وجاء في سورة السجدة قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾(السجدة/ ١٥) ، في هذه الآية جاء التسبيح بصيغة الماضي ، ولم يذكر القتال ، رغم ذكر الفتح في هذه السورة ، يقول تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ**﴾ (السجدة/ ٢٨-٢٩) ، فالمراد بالفتح المذكور في الآية القضاء والفصل بين المؤمنين والكفار يوم القيامة(٢) ، فربما يؤكد ذلك أن التسبيح بالماضي ليس شرطًا لذكر القتال.

وجاءت الفاصلة في الآيات الثلاث واحدة "العزيز الحكيم" ؛ نظرًا لأن المتحدَّث عنه في هذه الآيات واحد، وهو تسبيح كل الموجودات لله ، وهاتان الكلمتان مقترنتان؛ لأن في ذلك منتهى الكمال فقد جمع العزة والحُكم ،" فالعزيز إذا حكم كان ذلك منتهى العزة"(٣) ، فمن يسبح له الوجود، ويمجد عظمته فلا بُد أنه عزيز في ملكه ، وحكيم في خلقه ، وتدبير شؤون ملكه.

(١) انظر: على طريق التفسير البياني١: ٢٠٢، و ٢٣٦.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٧٩، الكشاف ٥: ٤٠ .

(٣) على طريق التفسير البياني١: ٢٠٣.

● **الحث على التسبيح بصيغة المضارع ، يقول تعالى:**

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة/ ١).

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(التغابن/ ١).

جاء لفظ يُسبِّحُ مرتين في كل من سورة الجمعة ، والتغابن ؛ ليُفهم من هذه الصيغة دوام التسبيح وتجدده واستمراره ؛ لاستمرار ملك الله سبحانه وتعالى ، ولم يحتج لتأكيد وقوعه بهذه الصيغة بأكثر من مرة لإقرار وقوعه على صيغة المضارع في سورة التغابن[١] ، وبغض النظر عن تكرار صيغ التسبيح سواء الماضي منها أوالمضارع فإن التسبيح تأكد وقوعه ، وتجدده واستمراره، فهو من عادة من أسند إليهم التسبيح في كل زمان.

وفي سورة التغابن كانت فاصلة الآية **﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾** لتقدم قوله " **لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**" فمن كان كذلك فهو قدير على كل شيء أراده [٢]، فقدرته مطلقة ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لأنه قدير لا يمانعه أحد في ما أراد.

ومن الملاحظ أن الصيغ سميع بصير عزيز حكيم قدير، من أوزان صيغ المبالغة على وزن فعيل، فقد يوهم ذلك بأنها للمبالغة ، فكيف تكون للمبالغة، وهي صفات لله ؟ يقول الزركشي: "لا مبالغة فيها لأن المبالغة أن تثبت للشيء أكثر مما له ، وصفات الله متناهية في الكمال ، لا تقبل زيادة أو نقصانًا ، وهو منزه عن ذلك"[٣] ، ففعيل عند النحاة من صيغ المبالغة والتكرار، محولة من فاعل ، فهذه الصيغ للفاعل لا للمفعول

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧: ٥٩٠

(٢) انظر: التفسير الكبير٣٠: ٢٠ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٢: ٥١٠ .

به (1) ، وأصل فعيل أن يكون بمعنى فاعل كعليم(2) ، فهذان تفسيران الأول منهما يرتبط بالدلالة المعنوية، والثاني يرتبط بالدلالة النحوية ، مما يقوي أن صفات الله لا مبالغة فيها، فهي صفات ثابتة ثبوت الصفة المشبهة ، غير خاضعة للزيادة والنقصان خضوع صيغ المبالغة، فهي صفات مشبهة.

- **الحث على التسبيح بصيغة الأمر، يقول تعالى:**

﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى** ﴾(الأعلى/ ١).

جاءت صيغة الأمر "سَبِّحْ" على وجه الحقيقة من الأعلى إلى الأدنى ، مما يدل على أن الإنسان مكلف بالتسبيح "ويأتي الأمر استيعابًا لكلمة التسبيح من جميع جهاتها: المصدر والماضي والمستقبل ثم الأمر الحاضر"(3) ، وفي سورة الأعلى جاءت فاصلة آية الاستهلال "الأعلى" لتؤكد أن التسبيح لا يكون إلا للذات الإلهية العليّة ، فمن يملك ما في السموات والأرض عليٌّ مقتدر، لا يفاضله شيء في علوه عزّ وجل.

ويغلب على ظني أن اختلاف الاستهلال بألفاظ التسبيح في المسبحات يُردُّ بعضه إلى الاختلاف في صيغ التعبير؛ لأنّ صيغتي الماضي والمضارع أُتْبِعتا بالمدلولات نفسها ، وهي تسبيح ما في السماوات والأرض ، فجِيء مرة بصيغة الماضي ليدل على الاستمرار، فالماضي لا يعني انتهاء التسبيح ، ففي هذه الصيغة إخبار عن وقوعه واستمراره ، وجِيء به مرة أخرى بصيغة الحاضر ليدل على الحاضر والمستقبل ، وأظن أن اختلاف صيغ التسبيح من فنون التعبير وبلاغته المؤكدة للمعنى الدالة على قيمته .

ولننظر إلى استعمال "ما" في آيات التسبيح فالأصل أن تستعمل "ما" لغير العاقل ، وقد تستعمل للعاقل ،" وتستعمل في موضع اختلاط العاقل مع غير العاقل"(4) ، كما في قوله

---

(١) المصدر نفسه ٢: ٥١٠.

(٢) الكشاف ١: ١٧٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن١: ١٦٥ وانظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل ٦١٩.

(٤) شرح ابن عقيل ١: ١٤٧.

تعالى :﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، وقد يُغلَّب غير العاقل على العاقل لكثرته ([1])، يقول الزركشي: "ما" تتناول الأجناس كلَّها تناولاً عامًا و"من" لا تتناول غير العقلاء بأصل الوضع"([2]) ، وهذا أمر معقول فغير العاقل من موجودات في السماء والأرض أكثر من العاقل، وكونها تسبح الله فيغلب استعمال ما لكثرة غير العقلاء المسبحين الله في ملكه ، فاستُعملت "ما" مع كل الأجناس أي العاقل منها وغير العاقل وقد اختلطا، ففيهما من الإنس والمَلك والجن والحيوان والنبات والجماد.

ويلاحظ تكرار "ما" في آيات الاستهلال، ولعلّ مردّ ذلك إلى اختلاف تسبيح أهل الأرض وتسبيح أهل السماء في الكثرة والقلة والبعد والقرب من المعصية والطاعة ([3])، ويرى فاضل السامرائي أن تكرار "ما" يعقبه الكلام عن أهل الأرض"([4])، ففي الحشر، والصف ، والجمعة ، والتغابن ، بعد الآية الأولى التي تكررت فيها "ما" جاء الحديث عن أهل الأرض في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ (الحشر/ ٢) ، وفي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(الصف/ ٢) ، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (الجمعة/ ٢) ، وقوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(التغابن/ ٢) ، فهذه آيات تلت آية الاستهلال ذُكِر فيها الكافرون ، والمؤمنون ، والأميون ، وكلهم من أهل الأرض ، وفي سورة الحديد يقول تعالى:﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الحديد/ ٢) ، فالحديث فيها عن الله سبحانه وتعالى عن مالك المُلك وليس عن أهل الأرض حيث إنه لم تتكرر"ما" في استهلال السورة كما تكررت في الحشر، والصف ، والجمعة ، والتغابن.

---

(١) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧: ٨٦٢

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣: ٣٠٧

(٣) انظر: أسرار التكرار في القرآن ٢٣٧.

(٤) على طريق التفسير البياني١: ٢٠٢ .

ويرى الفخر الرازي أن الحكمة في عدم تكرار "ما" أن مجموع السماوات والأرض واحد" (1) ، فالخلق واحد ، وكل ما فيهما خلق الله -عزّ وجلّ- ومن بديع صنعه ، "فما" تدل على ما في الأرض كما تدل على ما في السماء ، و أيضًا لم تتكرر "ما" في استهلال سورة الحديد " **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** " ليطابق بالكلام ما اتصل به من قوله في الآية التي تليها " **لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** " فلما لم تكن هذه الآية مستدعية لفظة ما ، روعي ذلك لتناسب الآيتين مع حصول المعنى"(2).

وقُدِّم ما في السماوات على ما في الأرض ؛ لأن أهل السماوات أسبق في التسبيح إذ يقول تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾(البقرة/ ٣٠)(3) .

هذه الآية يستدل بها على أن خلق الملائكة أسبق من خلق آدم ، فهم أسبق في التسبيح من بني آدم ولعل السياق يستوجب تقديم المُسبَّح على المُسبِّحين في آيات الاستهلال ؛ لأن من أوجد السماوات والأرض يجب أن يكون مقدمًا على ما أوجده .

وفي قوله تعالى: " **لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ** "(التغابن/ ١) تقدم الخبر شبه الجملة "له" على كل من المبتدأ "الملك والحمد" ومع أن المبتدأ معرفة يجوز تقدمه ، وما دلالة ذلك التقديم إلا على أهمية الخبر الذي يؤكد اختصاص الملك بالله، وقال الزمخشري:" قدم الظرفان ليدل بتقديمها على اختصاص الملك والحمد بالله" (4)، ومن المعروف أن اللام من أحرف الجر التي من أصل معانيها الاختصاص والاستحقاق ، فمن استحق شيئاً فقد حصل له به

---

(١) التفسير الكبير ٣٠: ٢١

(٢) ملاك التأويل ٨٩٠- ٨٩١.

(٣) انظر: على طريق التفسير البياني١: ٢٠٣

(٤) الكشاف ٦: ١٣٠ ، وانظر التفسير الكبير ٣٠: ٢٠، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١٢٤٦.١.

الاختصاص[1] ، فالملك والحمد يختص بهما الله ، وإنّ من اختص بشيء فهو يستحقه ، ولعل الاختصاص والاستحقاق متأكد حصولهما معاً.

وقد وردت السماوات جمعًا في آيات الاستهلال في المسبحات ، "فجمعت السماوات لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم ، وتباين مراتبهم لم يكن بُد من جمع محلهم"[2] ويرى السيوطي أنه إذا أُريد بالسماء عددها أُتِي بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، نحو قوله تعالى:﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ**﴾ (الحديد/ ١)، وتأتي السماء مفردة إذا أريد الجهة، نحو قوله تعالى:﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ**﴾ (الملك/١٦) ، وقوله تعالى:﴿**وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ (الذاريات/ ٢٢) [3] .

إن تنوع صيغ الحث على التسبيح ، من المصدر إلى الفعل الماضي وإلى الفعل المضارع ، والانتهاء بفعل الأمر تأكيد على تواصل التسبيح دون انقطاع من كل موجود في السماوات والأرض، فعلى الإنسان أن يسبح الله العزيز في ملكه ، الحكيم بتدبير شؤون خلقه ، العليّ في قدرته عزّ وجلّ. فهذه البنى المختلفة للتسبيح كلها في أعلى درجات البلاغة في الحث على التسبيح، وتؤكد أن التسبيح لا يحده زمن ، فهو في كل وقت وحين ، وأن كل ما في الوجود وأن كل من أُسند إليه التسبيح يسبح الله تسبيحًا دائمًا متصلاً لا ينقطع ، وإن صيغة سبحان جاءت في سياق حادثة الإسراء لتدل على عظمة هذه المعجزة التي تستوجب تنزيه الله وتمجيده ، " فالافتتاح بكلمة التسبيح يؤذن بأن خبرًا عجيبًا يستقبله السامعون، دالا على عظم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة

---

(١) انظر: الجنى الداني في حروف المعاني٩٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤: ٨.

(٣) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤١٠.

المتحدَّث عنه"[1] ، فخبر الإسراء أمر عجيب على السامعين ، فكان المكذبون له أكثر من المصدقين، وهو معجزة تدل على عِظم قدرة الله ، وتكريم للرسولﷺ .

وفي سبَّح ويُسبحُ جاءت في سياق الحديث عن تسبيح المخلوقات لله عز وجل ، ويليها سبِّحْ بالأمر ليكون التسبيح مُكلفًا به كل إنسان مؤمن بقدرة الله وعظمته .

وبإمعان النظر في آيات التسبيح التي تخبر عن التسبيح الحاصل من كل الموجودات في السماوات والأرض ، وتأمر به في قوله تعالى: ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾(الأعلى/ ١) ، نجد في ذلك إشارة إلى وحدانية الله ، والدعوة إلى الإيمان به ، فالذي له الملك ، وله الحمد، وسبّح له الكون ، وهو الأعلى، أي "أعلى من أن يقاس به أو يعتبر بغيره"[2] ، فهو المتفرد بالألوهية والوحدانية.

٢- وحدانية الله والدعوة إلى الإيمان به .

وردت وحدانية الله والدعوة إلى الإيمان به –عزّوجلّ- في سورة الإسراء في الآيات٢٢، ٤٢-٤٣، ١١١، وفي سورة الحديد في الآيتين ٢-٣، وفي الحشر في الآيات ٢٢-٢٤ ، وفي الصف في الآيتين ١٠-١١، وفي التغابن في الآية١٣.

من دلالات الوحدانية التي تضمنتها سور المسبحات ما يأتي:

- **النهي عن أن يُعبد مع الله إله آخر، يقول تعالى :**
﴿**لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً**﴾(الإسراء/ ٢٢) .

جاءت الدعوة إلى وحدانية الله تكليفًا عامًا في سياق النهي " لتدل على وجوب عبادة الله تعالى ، وتدل على المنع عن عبادة غير الله "[3] ، فاسم المفعول" مذموم ومخذول" يؤكد حال من اعتقد أن مع الله إلهًا آخر، فَعِلَة هذه الحال من القعود أن يجعل المرء إلهاً مع الله ،

---

(١) التحرير والتنوير١٥: ٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة علا.

(٣) التفسير الكبير ٢٠: ١٨٥.

والذي يؤكد هذا المعنى الفاء ؛ "فإن أصل الفاء أن يكون الذي قبلها علة لما بعدها"(١) ، فعبادة غير الله عِلَة سوء الحال من الذم والخذلان.

- **امتناع أن يكون مع الله آلهة ، يقول تعالى:**

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ۞ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء/ ٤٢-٤٣).

والذي يؤكد هذا الامتناع أسلوب الشرط ، ويرى المفسرون في تفسير جواب الشرط " لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا " أمرين : لو كان مع الله آلهة لطلبت التقرب إلى الله بعبادته وطاعته، أو طلبت فساد ملكه ونازعته فيه وضاهته في قدرته (٢) ، ويبدو أن معنى منازعة الله -عز وجل- ملكه أظهر في الآية ، لأن الشركاء يتنازعون في الملك للوصول إليه ، والمحافظة عليه ، والآية التالية تُنزه الله أن تشاركه آلهة في ملكه ، فهو يتعالى عما يقولون من شرك ، وهذا تعالٍ " ليس على سبيل التكلف كما عند البشر؛ فَعُلُوّه لا يحيط به وصف الواصفين وعلم العارفين"(٣)، فهو عُلوّ كبير،وهذا تأكيد لصفة هذا العُلُوّ الذي يعجز كائن من كان أن يحيط به ، فهذه الآية تدل على عدم وجود آلهة تنازع الله ملكه ؛ لتؤكد ما تقدم من النهي عن عبادة غير الله عزّ وجلّ.

- **نفي اتخاذ الله ولدًا أوشريكًا أو وليًّا ، يقول تعالى:**

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء/ ١١١).

جاء الأمر "قل" من الله على لسان النبيﷺ للناس بحمد الله ،أي الثناء عليه بكل فضيلة وجميل يليق بعظمته لانتفاء أن يكون لله ولد فهو﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾(الإخلاص/ ٣) ، أو

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ٧٢.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ١: ٤٥٨ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٦٨ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢١٧.

(٣) المفردات في غريب القرآن ، مادة علا.

يكون له شريك كما زعم المشركون ، أو يكون له ولي من الذل، أي بسب الذل([1]) ، "وكبّره تكبيرًا" خاتمة تتسق مع ما تقدم من مضمون الآية ، فمن كانت هذه صفاته فهو يستحق التعظيم ، وجاء المصدر "تكبيرًا" مؤكدًا التعظيم لله ، وقال ابن جُزي الكلبي: " كبره معطوف على قل ويُحتمل أن يكون التعظيم بالقلب أو باللسان؛ أن يقول الله أكبر مع قوله الحمد لله" ([2])، ويبدو أن الكيفيتين محتملتان معًا ؛ فمن كان مؤمنًا يستشعر عظمة الله في قلبه في كل حال وحين، ويردد لسانه "الله أكبر" تعظيمًا لله الأعظم في صلاته وأذكاره ، وتتأكد وحدانية الله بنفي أن يكون له – عزّ وجلّ– ولد، أو شريك ، أو ولي .

فهذه دعوة إلى وحدانية الله بدأت بالنهي عن أن يجعل الإنسان لله شريكاً ، ثُمّ تَبِع ذلك النهي الاستدلال على وحدانية الله ، ثُمّ جاء الأمر بحمد الله وتعظيمه وتكبيره ، لا شريك له.

- **صفات الله ، وأسماؤه الحسنى الدالة على وحدانيته ، يقول تعالى:**

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الحديد/ ٢-٣) .

ومما يدل على وحدانية الله أنه يملك السموات ولأرض، له السلطان ، أمره نافذ ، يحيي ويميت، فالموت والحياة بأمره ، وهو القدير على كل شيء ، فهذه ثلاث جمل خبرية تدل على وحدانية الله. والقدير أي " الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائدًا عليها ولا ناقصًا، فلذلك لا يصح أن يوصف بها غير الله ، فإذا اتصف بها البشر فهو المُتكلِّف المُكتسِب لها "([3])، فهذه القدرة المطلقة لصفات الله من الإحياء والإماتة تؤكد وحدانيته المطلقة ، ثُمّ تتبعها الصفات الأزلية الأبدية " فهو الأول القديم الموجود قبل كل شيء ، والآخر الذي يبقى بعد هلاك كل شيء الظاهر بالأدلة الدالة عليه ، الباطن غير مدرك

---

(١) انظر أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣ : ٧٤٩.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل١: ٥٠٠.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة قدر.

بالحواس"(1) ، ولننظر إلى الواو التي جمعت بين الأول والآخر ، والواو التي جمعت بين الباطن والظاهر، ثُمّ الواو الوسطى التي جمعت بين كل من الصفتين ، فما جاءت إلا لتدل على أن الله جامع للصفات مع اختلاف معانيها ، فهذه الواو هي واو العطف التي تفيد الجمع ، وهذا تمام المعنى وتأكيده (2) ، فهذه صفات وأسماء تدل على وحدانية الله ، وتدعو إلى الإيمان به.

ويقول تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر/ ٢٢).

هو الله الذي لا إله إلا هو، كلمة الإخلاص والحق والتوحيد ، " فهذا اللفظ بهذا الاختصار فيه من الحكمة البالغة ، واشتمالها على نفي الكفر، وإثبات التوحيد ، وإزالة الشرك ، ووجوب الإيمان"(3) فاقتصرت الألوهية على ضمير لفظ الجلالة هو؛ فانتفت الألوهية عن غير الله وأُثبتت لذاته العَلّيّة ، وبتكرار كلمة التوحيد، وما تبع هذه الكلمة من صفات دليل على وحدانية الله فهو عالم الغيب والشهادة، وقُدِم الغيب على الشهادة ؛ "لأن علم الغيب أشرف "(4) ، ومن فضله وإنعامه على عباده أنه رحمن رحيم " الرحمن الذي وسع كل شيء رحمة ، ولا يطلق الرحمن إلا على الله ، والرحيم غيره ، وهو الذي كثرت رحمته ، وهو رحمن الدنيا ، رحيم الآخرة ، إحسانه في الدنيا يعُم المؤمنين والكافرين ، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين" (5) ، والرحمن مختص بالله لا يجوز أن يُسمّى به غيره،   والرحيم صفة مطلقة للمؤمنين ، ولما في الرحمة من العموم قُدِّم على الرحيم ؛ لأن من معنى الرحمن استغراق الخلق بالرحمة (6) ، وربما كان الفضل في هذه الرحمة أنها جاءت بعد علمه الواسع

---

(1) الكشاف ٦: ٤٢

(2) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٠٩ ، الكشاف ٦: ٤٣.

(3) الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني ١٣٧.

(4) الإتقان في علوم القرآن ٤٤٨.

(5) المفردات في غريب القرآن، مادة رحم.

(6) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته ٤٠١- ٤٠٢.

بالغيب والشهادة ، فهو رحمن رحيم بعباده، وهو عالم بذنوبهم التي لا يستطيعون إنكارها ، فيغفرها برحمته التي وسعت كل شيء.

ويقول تعالى:

﴿هُو َاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الحشر/ ٢٣).

مرة أُخرى تتأكد أُلوهية الله بتكرار"هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ" ، وهو قدوس منزه عن صفات المخلوقين ، وهو السلام الذي سلّم العباد من الجور، أو السليم من النقائص ، وهو مؤمن واهب الأمن ، وهو مهيمن رقيب على كل شيء ، وهو جبار قاهر لايقهر ، وهو متكبر بليغ العظمة ، وقيل المتكبر عن ظلم عباده ، وتختم هذه الصفات بتنزيه الله عن شرك المشركين ([1]) ، وجاءت الصفات متلاحقة دون ذكر الحرف المعطوف به ، فكان ذلك بلاغة وإيجازًا ، وهذا أحسن حذوف الواو من المعطوف والمعطوف عليه([2])، وهذا التلاحق ربما دل على اجتماعها في الذات العلية دون تناقض بينها.

ويقول تعالى:

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر/ ٢٤).

ومن أسماء الله وصفاته "الخالق" ، والخلق أصله التقدير المستقيم ، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء([3]) ، و"البارىء" المبدع المخترع ، فلا يسمّى به ولا يوصف به إلا الله ، وهذا الاسم يختص بالإيجاد من غير إشعار بتقدير أو تصوير([4]) ، والتصوير جَعْل الشيء في وجود يتميزعن غيره من تقدير وتخطيط واختصاص بشكل([5]) ، ويفسر القرطبي هذه الصفات "بأن الخالق المقدر، والبارئ المنشيء المخترع ، و"المصور" مصور

---

(١) انظر: الكشاف ٦: ٨٥ ، التسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٣٢

(٢) انظر: المثل السائر ٢: ٣١٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة خلق.

(٤)انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته ٢٢٧.

(٥) المصدر نفسه ٣٤٩.

الصور ومركبها على هيئات مختلفة ، وهو التخطيط والتشكيل ، فالتصوير مرتب على الخلق والبرية"[1] ، ومما تقدم تتبين الدقة في ترتيب هذه المراحل التي تبدأ بالإيجاد من غير أصل ، ثمّ تأتي مرحلة الإنشاء والإبداع لما خلق ثمّ التخطيط والتشكيل ؛ ليكون ما خلق في أحسن شكل وهيئة أرادها الله ، فهذا الترتيب وهذه الدقة في الخلق تستوجب تسبيح الله الخالق المبدع.

• **الإيمان بالله تجارة رابحة ، ويقول تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(الصف/ ١٠- ١١).

بُدِئت الآية بخطاب المؤمنين ، وهذا خطاب مدح للمؤمنين[2]، ثُمّ جاء الاستفهام الذي يفيد الترغيب[3]، فكأن المدح مقدمة للترغيب في تجارة الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله وهذا وجه للربط بين المعنيين ، و"تؤمنون" استئناف وهو خبر بمعنى الأمر، أي "آمنوا" وقال بذلك أكثر من مفسر، فتؤمنون تفسير للتجارة [4]، وتقدُّم الإيمان بالله ورسوله على الجهاد ؛ لأنه أصل الجهاد فمن آمن بالله ورسوله امتثل أمر الله ورسوله ، وتقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ؛ لأن المال عَصَب الجهاد ، ويمكن القول إن المال يناسب أجواء التجارة ؛ فهو من مستلزماتها، وتقوم عليه ، فهذه تجارة دينية رابحة ، تدعو إلى الإيمان بالله عزّ وجل.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٣٦.

(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤٤٨.

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن ٢: ٣٤١

(٤) انظر: التفسير الكبير ٢٩: ٣١٧ ، المحرر الوجيز ٥: ٣٠٤، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٤٣.

•إثبات الألوهية، والتوكل على الله ، يقول تعالى :
﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(التغابن/ ١٣).

تتكرر كلمة التوحيد التي تثبت الألوهية لله ، وتنفيها عن غيره ، فلا يوجد في الكون إله غيره ، فأمر الله المؤمنين بالاعتماد عليه ، وقدم الجار والمجرور "على الله" لإفادة الاختصاص أي أن المؤمنون لا يتوكلون إلا على الله"[١] ؛ لأنهم آمنوا بوحدانية الله ، فمن آمن بالله يعتمد عليه ، ويلتجئ إليه .

هذه أبرز المواضع التي اتَّحد مضمونها في تقرير وحدانية الله ، والدعوة إلى لإيمان به ، ولوحِظ أن سورة الإسراء المكية النزول جاء فيها أربعة مواضع تتضمن هذه الدعوة ، وهذا يتفق مع ما تميز به القرآن المكي من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالله عزّ وجلّ ، وبإمعان النظر في سورة الأعلى المكية أيضًا نجد أن أجواء السورة بما فيها من القدرة على الخلق والهداية توحي بهذه الدعوة الإيمانية ، وفي بقية سور المسبحات المدنية النزول، وما ميزها من التفصيل في أمور الدين لم تخلُ من آيات الوحدانية ، ويمكن القول إن كل موضع في القرآن الكريم يدل على وحدانية الله بمضمونه وبيانه المعجز ، ويدعو إلى الإيمان به عزّ وجلّ ، وبإعادة النظر في هذه الدعوة نتبين التدرج في طرحها ، فقد بدأت في النهي عن عبادة إله آخر مع الله ، ثُمّ سوق الأدلة على وحدانيته التي تمثلت في صفاته المتعددة المتلاحقة الدالة على وحدانيته ، وتؤكد حقيقة الوجود الإلهي ، و جاءت الصفات المتلاحقة لتلقي بظلال الإيمان والأمان والقداسة في النفس ، واستشعار الكون بالتسبيح الذي لا ينقطع ، والدعوة إلى تجارة إيمانية رابحة مع الله ، وجاءت خاتمة هذا التطواف مع دعوة التوحيد لتثبت الألوهية ، وتأمر بالتوكل على الله عزّ وجلّ.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨: ٢٨٢.

٣- تقرير البعث والحساب :

تضمنت سور المسبحات آيات ذكرت يوم البعث والحساب باستثناء سورة الجمعة ، ففي سورة الإسراء ذُكر في الآيتين ١٣- ١٤، وفي سورة الحديد في الآيات ١٢- ١٥، و في سورة الحشر في الآية ١٨، وفي سورة الصف في الآيات ١٠-١٢، وفي سورة التغابن في الآية ٩ ، وفي سورة الأعلى في الآيات ٩- ١٢.

من الدلالات التي تضمنتها سور المسبّحات ما يلي:

- **الحث على الإعداد ليوم القيامة وكأنه يقع غدًا ، يقول تعالى:**

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّـهَ خَـبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ﴾(الحشر/ ١٨).

نداء وأمر للمؤمنين بالتقوى أي "جعل النفس في وقاية مما يُخاف"(١) ، وتقوى الله في أداء الواجبات في ما أمر ، وترك المعاصي ؛ والنظر في ما يُقدم من عمل لغد ، وغد تعبير عن الآخرة ، فكأن الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد ، ونُكِّر الغد لتقريب الزمان وتعظيمه ، وتنكير النفس تقليل للأنفس الناظرة في ما قدمته لغدها (٢) ، فهذه الآية تذكير بالإعداد ليوم الآخرة ، وتقرير البعث والحساب، وتقرير قربه ، فيوم القيامة قريب ، لأن الغد آتٍ ، فمن يتق الله لا يستبعد يوم البعث والحساب.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة وقى.

(٢) انظر الكشاف ٦: ٨٤ ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٢٢٧.

• **جمع الناس يوم القيامة ، يقول تعالى:**

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التغابن/ ٩).

سيجمع الله الأولين والآخرين في يوم الجمع ، يوم التغابن "يوم القيامة لظهور الغبن ، والغبن أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضرب من الإخفاء"(١) ، والتغابن هنا "أن يغبن بعضهم بعضا لنزول السعداء منزلة الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منزلة السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء ، وفي ذلك تهكم بالأشقياء"(٢)، فالتغابن بهذا التفسير يفيد المشاركة فكل منهما يغبن الآخر، ولكن بعض المفسرين رأوا أن التغابن من الغبن وليس من صيغة التفاعل من كونه بين اثنين ، وإنما هو فعل كتواضع ، أي لا يفيد المشاركة ، فكل واحد ينبعث من قبره يرجو منزلة ، فإذا وقع الجزاء غبن المؤمن الكافر لأنه فاز بالجنة ، والكافر حاز النار(٣).

وربما كان المعنى الثاني أظهر ؛ لأن الغبن يبدو من طرف واحد وهو المؤمن حيث إن الكافر هو المغبون ؛ لبخس أجره فمصيره النار جزاء عمله.

فمن جاء هذا اليوم وقد عمل عملاً صالحًا، فحذف "عملاً" وقامت صفته مكانه ، فالمقصود صفة العمل ، يكفّر الله سيئاته ، أي يستر سيئاتهم لأن "الكُفر ستر الشيء"(٤)، والتضعيف في عين الفعل يفيد التكثير، فيعني ذلك أن الله يستر كثيرًا مِن سيئات مَن عمل صالحًا ، ثُمّ يُدخله جنات خالدين فيها ، وقوله تعالى "خالدين فيها" " على الجمع باعتبار

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة غبن.

(٢) الكشاف ٦: ١٣٣.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٥: ٣١٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ١٣٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن مادة كفر

معنى مَنْ ، والإفراد باعتبار لفظها"[1]، ويؤكد الخلود الدائم بأبدًا ، فهو خلود دائم، وهو فوز عظيم.

• **مسؤولية الإنسان عن عمله يوم القيامة، يقول تعالى:**

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (الإسراء/ ١٣-١٤).

كلّ: خطاب لعموم الناس "كل لفظ يفيد العموم"[2]، وانتصب بفعل مضمر بسبب انشغال الفعل ألزمنا بالضمير[3] ، وألزمناه طائره ، أي عمله الذي طار إليه من خير أو شر، وهو لازم له لزوم القلادة للعنق ، وخص العنق بلزوم العمل ؛ لظهور الحلي التي تزينه أو الأغلال التي تشينه عليه، فيوم البعث يخرج الله صحيفة أعمال العبد منشورة ليقرأ كتابه بنفسه حتى من لم يكن يقرأ[4] ، و" كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا "، "أي كفت نفسك حسيبة ، فبنفسك في موضع رفع"[5] فتكون الباء حرف جر زائدًا مؤكدًا للمعنى ، أي أن الإنسان حسيب نفسه على ما قدم في حياته ، فهذا المشهد من يوم البعث الذي ينكره المشركون سيشهده كل إنسان بأم عينه يوم القيامة.

---

(١) روح المعاني ٢٨: ١٢٤.

(٢) حروف المعاني ١.

(٣) انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ٧٧.

(٤) انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٦٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٨٣

(٥) معاني القرآن وإعرابه٣ : ٢٣١.

●**حال المؤمنين يوم الحساب ، يقول تعالى:**

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد/ ١٢).

بعد نشر الصحف يرى كل إنسان جزاء عمله ، في يوم الحساب نور المؤمنين والمؤمنات يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، فيه قولان : الهدى والرضوان ، ونور حقيقة يضيء بين أيديهم أي أمامهم، وفي يمينهم ، وهذا ما ذهب إليه جمهور المفسرين ، ويبدو هذا المعنى أظهر ؛ لأن المؤمنين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ومن أمامهم وليس من وراء ظهورهم أو شمائلهم ، تستقبلهم الملائكة بقولها بشراكم ، فحذف الفعل اختصاراً، أي تبشرهم بدخولهم جنات بالجمع مما يدل على عظيم الجزاء([١])، ويؤكد ذلك الجزاء بالجملة الخبرية" ذلك هو الفوز العظيم" ، وضمير الشأن هو يشير إلى فوز عظيم الشأن ، هذه صورة مشرقة مضيئة للمؤمن يتلألأ نور الإيمان فيها بين يديه وخلفه.

وفي السياق نفسه ، يقول تعالى:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الصف/ ١٢).

يوم البعث يغفر الله ذنوب عباده ، ويدخلهم جنات مساكنها طاهرة زكية ، وهذا الوصف إشارة إلى حسنها بذاتها "وجنات عدن" أي إقامة وخلود دائمين ، أما هذا الوصف على اعتبار محلها ، فهذا فوز عظيم لا فوز بعده ([٢]) ، هذا إخبار من الله لمن غفر لهم من عباده بدخول الجنة ، وهذا الجزاء لا يكون إلا يوم البعث ، وتكرار كلمة جنات يدل على عظم الأجر، وهذا الوصف للجنة ومساكنها يدل على منزلة الجنة وعظمها ، وعلى الترغيب فيها ، والإعداد لها.

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١١.

(٢) انظر: روح المعاني٢٨: ٩٠.

- **حال المنافقين يوم البعث ، يقول تعالى:**

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ۞ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(الحديد/ ١٣- ١٥).

هذه الآيات تصور المنافقين يوم البعث ، وهم يستغيثون بالمؤمنين يطلبون منهم أن ينتظروهم للحاق بهم ، أو ينظروا إليهم للاستضاءة بنورهم ، فيقال لهم ارجعوا إلى الدنيا التمسوا النور بالإيمان سخرية وتهكمًا ، لاستحالة رجوعهم ، ويتبع ذلك الفصل بينهم وبين من آمنوا بسور له باب باطنه من جهة المؤمنين رحمة ونور، ومن جهة المنافقين عذاب وظُلمة ، بعد ضرب السور ينادي المنافقون المؤمنين قائلين ألم نكن معكم في الدنيا أو في أداء العبادات ، ويبدو أن المعية في أداء العبادات أظهر في السياق ؛ لأن المنافقين يؤدون العبادات في الظاهر نفاقًا ، فجاء الجواب "بلى" على الاستفهام المنفي لإفادة التصديق ، كنتم معنا لكنكم أهلكتم أنفسكم بالنفاق ، وفتنتم أنفسكم ، أي أبطأتم إيمانكم ، أو انتظرتم أن تدور الدوائر على الرسول والمؤمنين ، وشككتم في أمر الله ، وغركم طول العمر والأمل ، إلى أن جاءكم أمر الله ، أي الموت أو الفتح وظهور الإسلام ، وغركم الشيطان بأن الله لن يعذبكم ، واليوم ، أي يوم الحساب والعذاب لا يُقبَل من منافق وكافر فدية يدفعون بها العذاب عن أنفسهم ، فالنار مكانكم أو ناصركم ، وتتولى أمركم [١] ، ويلاحظ أن السور المضروب له وجهان أحدهما يمثل الرحمة والآخر يمثل العذاب ، وهذا يطابق حال المنافقين الذين يظهرون بوجهين الكفر والإيمان ، وكان العذاب الوجه الذي انتهى إليه مآلهم .

---

(١) انظر: الكشاف ٦: ٤٦- ٤٧.

ويلاحظ اختلاف المشهدين: المؤمنون والمؤمنات مطمئنون؛ فكل كلمة في المشهد تبعث الطمأنينة في النفس بدءًا بالنور، بشراكم، الجنة، وانتهاءً بالفوز العظيم، والمنافقون والمنافقات خائفون، تحيط بهم الظلمة والنار، مآل مذموم ، تقرير وتأكيد ليوم البعث والحساب ، فكل من المؤمنين والمؤمنات ، والمنافقين والمنافقات ، ذكورًا وإناثًا ينال جزاءه.

• **النار الكبرى لمن يتجنب الموعظة ، يقول تعالى:**

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (الأعلى/ ٩-١٣).

النار الكبرى لا تكون إلا يوم القيامة للأشقى الذي يتجنب الموعظة ، والأشقى الكافر؛ لأنه أشقى من الفاسق، أوأشقى الكفرة لتوغله في عداوة الرسولﷺ ، فيصلى النار الكبرى ، نار الآخرة ، نار جهنم ، فهي كبرى نظراً لنار الدنيا أو بالنظر إلى غيرها من نار جهنم ، فهي طبقات ، فمن يدخلها لا يموت فيرتاح ، ولا يحيا حياة هنية، فهو حي يُعذب ، وجاء العطف بثُمّ ؛ لإفادة التراخي في مراتب الشدة ؛ لأن هذه الحالة أشد من الصّلي [1] ، وأصل الصلي لإيقاد النار، أي بُلي بها واصطلى بها[2] ، والاصطلاء أقل شدة من البقاء في النار لا موت ولا حياة ، نار لا تكون إلا يوم البعث والحساب.

فالآيات تدرجت في الحديث عن يوم البعث والحساب ، فبدأت بالحث على الإعداد لهذا اليوم الذي يُجمع فيه الناس ، فيلزمون أعمالهم ، يحاسبون عليها ، ينال كلّ من المؤمنين والكافرين جزاءهم ، نظير ما قدموه من أعمال في حياتهم الدنيا ، فمن آمن يغفر الله له ويدخله الجنة ، ومن كفر ولم يتعظ بالقرآن دخل نار جهنم الكبرى ، ومن خلال هذه الصور يتبين تقرير البعث والحساب الذي أنكره الكفار من المنافقين والمشركين.

---

(١) انظر: الكشاف ٦: ٣٥٩، التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٥٦٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة صلا.

٤- الحديث عن بني إسرائيل:

ذُكر بنو إسرائيل في أكثر من سورة من سور المسبّحات: في الإسراء في الآيات ٢-٨ و١٠٤، وفي الحديد في الآيتين ٢٨-٢٩، وفي الحشر في الآيات٢-٤ ، وفي الصف في الآيتين٥-٦ ، وفي الجمعة في الآيات ٥-٨ ، ولم يذكروا في التغابن والأعلى.
من الدلالات التي تضمنتها سور المسّبحات ما يلي:

- **تذكير بني إسرائيل بأن التوراة مصدر هدايتهم ، يقول تعالى:**

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾(الإسراء/ ٢).

تتضمن هذه الآية أمرين ، الأمر الأول أن الله أعطى موسى نبي بني إسرائيل التوراة ، وجعله أي الكتاب أو موسى مصدر هداية لهم [1] ، والأمر الثاني نهى بني إسرائيل عن اتخاذ غير الله ربّا يكِلون إليه أمورهم ، ولعل عودة الضمير على الكتاب أظهر من العودة على موسى؛ "لأن الأصل في عودة الضمير على أقرب مذكور"[2] ، وأقرب مذكور هو الكتاب الذي يبقى مصدر هداية لهم.

- **تذكير بني إسرائيل بأنهم من ذرية نوح عليه السلام ، يقول تعالى:**

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء/ ٣).

يقول الزمخشري:" إن ذرية نصب على الاختصاص، أو نداء فيمن قرأ لا تتخذوا "[3] في قوله تعالى: ﴿ **أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً**﴾ (الإسراء/ ٢) ، وهذا ممكن ؛ لأن

---

(١) روح المعاني١٥: ١٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٤٠١.

(٣) الكشاف ٣: ٤٩٤ ، وانظر روح المعاني ١٥: ١٤.

"الاختصاص يشبه النداء لفظًا"(1) ، فيعني ذلك أنه يخص أو ينادي ذرية من آمن مع نوح ، ومن المفسرين من يرى أنها نداء فيه تلطف يذكرهم بنعمة الله عليهم بأنهم من ذرية نوح (2)، ومن هو نوح إنّه العبد الخاضع لخالقه الشكور لأنعمه ، فبإنَّ تأكدت عبوديته وشكره لله ، وبصيغة المبالغة "شكور" تأكد الشكر الكثير المتكرر، وهذا يناسب سياق ما تقدم بأن لا يتخذوا غير الله وكيلاً ؛ لأنهم من ذرية نوح المؤمنة ، فمن رحمة الله ببني إسرائيل أن بعث فيهم رسولاً ، وآتاه الكتاب ليكون مصدر هداية لهم ، قبل أن يخبر عن فسادهم.

- **الإخبار عن فساد بني إسرائيل ، وعودتهم للفساد ، يقول تعالى:**

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾(الإسراء/ ٤).

بعدما تقدم من التذكير بفضله عليهم أخبر وأعلم بفسادهم ، وقضينا: أعلمنا وأوحينا إليهم وحيًا جزمًا(3) ، وتأكد فسادهم بعدة مؤكدات منها القسم المضمر الذي دلت عليه لام القسم ، وبنون التوكيد الثقيلة ، وبالمصدر النائب عن المفعول المطلق "مرتين" المؤكّد عدد مرات وقوع الحدث ، فهذا الفساد سيقع مرتين ، وتأكد العلو بعطف جملة "لتعلنّ" على جواب القسم "لتفسدنّ" ، وبالمصدر "علوًا" وصفته "كبيرًا" ، وهذا يدل على عِظم فسادهم.

أمّا عودتهم للفساد فيتمثل في قوله تعالى: **﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾** (الإسراء / ٥) .

تستعمل كلمة الوعد في الخير والشر ، والوعيد في الشر خاصة(4) ، فالوعد هنا في الشر ، ودليل ذلك أن العقاب جاء تاليًا للوعد، فالوعد هنا وعد العقاب الذي لابُد أن

---

(1) شرح ابن عقيل3: ٢٩٧.

(2) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل1: ٤٨١.

(3) المفردات في غريب القرآن مادة قضى ، وانظر الكشاف3: ٤٩٤.

(4) المفردات في غريب القرآن، مادة وعد.

يفعل[1] ، وأسلوب الشرط التام الأركان يترتب عليه وقوع فعله ، فجاء جواب الشرط "بعثنا"، وإضافة الفعل بعث إلى الضمير" نا" الذي يعود على الذات الإلهيه يعني أن هذا البعث أمر من الله جزاء فسادهم ، وسلط الله عليهم عبادًا أشداء أقوياء جاسوا الديار ، أي "توسّطوها وترددوا بينها ويقارب ذلك حاسوا وداسوا" [2]، ويذهب إلى هذا المعنى الزمخشري ويضيف إلى ذلك المعنى الخراب ، وعاثوا وقتلوا عند القرطبي[3] ، وإذاً فما كان توسُّط الديار والتردد بينها إلا لخرابها ، وتدميرها، وإعاثة الفساد فيها ، وقتل أهلها، وهذا ما يتسق مع السياق ، حيث كان ذلك بأمر من الله جزاء فسادهم وتجبرهم.

وفي آية أخرى في عودتهم للفساد يقول تعالى : ﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَاعَلَوْاْ تَتْبِيرًا** ﴾(الإسراء/ ٧).

اللام في "لأنفسكم" للاختصاص عند الزمخشري ، فهذا يعني أن النفع والضرر خاص بهم لايتعدى إلى غيرهم [4] ، فإن عادوا للفساد "يبعث عليهم" جواب شرط محذوف، لدلالة السياق عليه ، فتقدم ذكره في الإفسادة الأولى "بعثنا عليكم" وهذا إيجاز بالحذف ، وستبدو" آثار الشر والسوء والكآبة ظاهرة على وجوههم "[5] ، "وَلِيُتَبِّرُواْ مَاعَلَوْاْ تَتْبِيرًا" ، وتتبيرا: التَّبْرُ الإهلاك والهلاك والفساد ، وتبّره أهلكه وكسره [6]، فيهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه ، وإلى هذا المعنى من التدمير والفساد والخراب يذهب علماء التفسير[7]، فهذا وعد من الله بتدمير بني إسرائيل على يد عباده جزاء علوهم وتجبرهم وطغيانهم.

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل١ : ٤٨٢ ، و الكشاف ٣: ٤٩٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة جوس.

(٣) انظر: الكشاف : ٤٩٥ ، و الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٧٨.

(٤) انظر:الكشاف٣ : ٤٩٦.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٨٢.

(٦) المفردات في غريب القرآن ، لسان العرب مادة تبر .

(٧) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢: ٣٦٥ ، والكشاف٣: ٤٩٥ ، والجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٨٣.

• **نُصرة بني إسرائيل بعد عودتهم عن الفساد ، فيقول تعالى:**

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾(الإسراء/ ٦).

فالإمداد بالمال والبنين جاء بعد عودتهم عن الفساد ، وهذه العودة احتاجت إلى مدة معينة ، ويدل على ذلك حرف العطف ثُمّ الذي يفيد الترتيب مع مهلة ، "والإمداد هنا يأتي في المحبوب"(١)، والذي يؤكد هذا المعنى نوع الممدود، فهو مال وبنون ، وهما أعز ما يسعى الإنسان إلى ملكه ، وقد تقدم المال على البنين بالسببية ؛ لأن المال سبب المنعة واستعادة الملك يحتاج إلى المال ، كما أن البنين سبب آخر للقوة ، بدليل نفيرا، "والنَّفَرُ والنفيرعدة رجال يمكنهم النَّفْر"(٢) ، فنفر رجال بني إسرائيل لاستعادة ملكهم، فاعاده الله بعد عودتهم عن الفساد.

• **ترجي الرحمة لبني إسرائيل إن عادوا عن الفساد، يقول تعالى:**

﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا**﴾(الإسراء / ٨).

عسى فعل يفيد الترجي" وكل عسى في القرآن واجبة" إلا في هذا الموضع"(٣) ، فهذا ترجٍّ لبني إسرائيل بالرحمة إن تابوا، فهم لم يتوبوا فعادوا إلى العصيان، وعاد الله إلى إذلالهم ؛ فشُرِّدوا وقُتِّلوا، فعسى هنا غير واجبة لأنها ترجٍّ لهم لم يتحقق ؛ لأنهم عادوا إلى الفساد والعصيان ، وفي الآخرة جزاؤهم جهنم ، فكانت حصيرًا، أي "حابسًا لهم"(٤) ، فالحبس في في جهنم جزاء من عاد منهم إلى الفساد ، فشدة العذاب بقدرجرمهم الذي لم يرتدعوا عنه ، فكانوا يعودون إلى الإفساد مرة بعد أخرى.

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة مدّ.

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة نفر.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٤: ٢٨٨ .

(٤) المفردات في غريب القرآن مادة حبس.

•جمع بني إسرائيل من أخلاط شتى، يقول تعالى:

﴿ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾(الإسراء/ ١٠٤)

الأمر اسكنوا يخرج إلى الامتنان، فعندما أمرهم كانوا يسكنون الأرض، فقد منّ الله عليهم أن أنجاهم من فرعون ، "والأرض أرض مصر؛ لأن ذكر الأرض عمومًا، يراد به ما يناسب القصة "[١] ، وسكنهم مستمر إلى وعد الآخرة ، أي يوم القيامة إلى أن يأتوا لفيفاً، واللفيف من الناس المجتمعون من قبائل شتى ، وهم الأخلاط [٢] ، ففي يوم القيامة يأتي الله ببني إسرائيل جمعًا مختلطين مع غيرهم من أصناف شتى.

ومن الملاحظ من الآيات أن الله لايعاقب الناس إلا بعد أن يبعث الرسل ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الإسراء/ ١٥) ، فقد ذكّر بني إسرائيل بانه بعث لهم موسىعليه السلام وأنزل معه الكتاب ليهتدوا به ، لكنهم أعرضوا ، وأفسدوا ، فعاقبهم الله بأن بعث عليهم من عباده من يدمر ديارهم ، ويذلهم جزاء تجبرهم وطغيانهم .

• فخر بني إسرائيل بمضاعفة أجرهم ، يقول تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد/ ٢٨-٢٩).

النداء في مستهل الآية للتنبيه ، خاطب الله به الذين آمنوا من أهل الكتاب ، أو الذين آمنوا من غيرهم، والمعنى يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى آمنوا بمحمدﷺ[٣]، ولعل المقصود بهم أهل الكتاب، فالآية التالية في قوله تعالى:" لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ" خصت أهل الكتاب بالذكر، ومنهم اليهود، "وروي في سبب نزول الآية :"أن اليهود افتخرت على

(١) المحرر الوجيز ٣: ٤٩٠

(٢) المفردات قي غريب القرآن ، أساس البلاغة مادة لفّ.

(٣) الكشاف ٦: ٥٣.

المسلمين فنزلت الآية في الرد عليهم"[1] ، وآمِنوا" فعل أمر ترتب عليه جواب الطلب يؤتكم كفلين، "والكِفْل في الأصل مايكفل به الراكب فيحبسه ويحفظه من السقوط ، وهو الحظ والضعف من الأجر والإثم والكفل المِثل"[2] فالأجر المضاعف يحفظ الإنسان من السقوط في النار، فيجعل الله له نورًا، فهذا تأكيد لأهل الكتاب أن يعلموا أنهم لايقدرون على شيء من فضل الله ؛ فالفضل بيده ، فلا يفتخروا على المسلمين بمضاعفة أجرهم[3] ؛ لأن أمرالجزاء والثواب بيد الله تعالى.

- **إخراج بني النضير من ديارهم ، يقول تعالى:**

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾
(الحشر/ ٢).

أخرج الله بني النضير من ديارهم لأول الحشر، أي عند أول الحشر، اللام في "لأول" بمعنى عند، فقد ورد من معانيها" تكون بمعنى عند كقولهم كتبته لخمس خلون"[4] ، فإخراج بني النضير كان عند أول الحشر، والحشر جمع الناس يوم القيامة، والحشر "الجلاء عن الأوطان "[5] وإخراج الجماعة من مقرهم [6]، وعند بعض علماء التفسير أول الحشر إلى الشام ، وهو أول حشر في الدنيا ، وإخراجهم من حصونهم [7] ، والمعنى الذي يوافق سياق الآية الجلاء عن الأوطان ، فقد أخرجهم الله من ديارهم ، والمسلمون يظنون عدم

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤١٧. ، وانظر المحرر الوجيز ٥: ٢٧١.

(٢) لسان العرب ،مادة كفل .

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١٧.

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ٢١٠ .

(٥) لسان العرب، مادة حشر.

(٦) المفردات في غريب القرآن، مادة حشر.

(٧) انظر: الكشاف ٦: ٧٤ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٢٦ ، والجامع لأحكام القرآن ١٨: ٤.

خروجهم "والظن يعني الاعتقاد في حكم اليقين"[1] ، فالظن هنا يقين بعدم إخراج بني النضير، من قِبَـل المسلمين ؛ لشدة بني النضير وقوتهم، وظن من قِبَـل بني النضير ثقةً بمناعة حصونهم ، فتقدم المنعة على الحصن ، وإسناد الجملة الاسمية إلى ضميرهم الذي أصبح اسماً لأنّ المؤكدة مناعة حصونهم دليل ثقتهم بمناعة حصونهم[2] ، فجاءت الهزيمة بقذف الرعب في قلوبهم ، والقذف الرمي البعيد ، وهنا تتجلى عظمة الله وقدرته في رمي الرُّعب في قلوبهم ، فكان رمياً سريعًا مفاجئاً هزّ ثقتهم بحصونهم وبأنفسهم ، وهذا الإخراج عبرة وعظة لأولي الأبصار والبصيرة ، ولعل في ذلك تحذيرًا من الاغترار بالنفس.

- **نجاة بني إسرائيل في جلائهم ، يقول تعالى:**

﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾(الحشر/ ٣).

كان الجلاء منجاة لهم من القتل والسبي، ويؤكد ذلك أسلوب الشرط بلولا وهو حرف امتناع لوجوب أو لوجود ، فامتنع قتلهم وسبيهم في الدنيا لخروجهم من ديارهم ، أمّا في الآخرة فلهم عذاب النار الذي هو أشد من عذاب الجلاء عن ديارهم في الدنيا[3].

والجلاء ، خروج القوم عن أوطانهم إذا خرجوا من بلد إلى بلد ، ومن الملاحظ اتفاق الحشر والجلاء في معنى الخروج ، والصحيح أن هناك فرقًا بين الخروج والجلاء، بينه القرطبي ، فالجلاء يكون مع الأهل والولد ، ومع الجماعة ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد ، و يكون للواحد والجماعة [4]، يبدو أن الخروج في الآية الأولى يعني خروجهم من حصونهم التي احتموا بها ، والجلاء في الآية الثانية يعني خروجهم من بلدهم وديارهم مع الأهل والولد ، والله أعلم .

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة ظنّ.

(٢) انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٢٢٣ .

(٣) انظر: المصدر نفسه ١٢٢٣.

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٩

• **سبب جلاء بني النضير ، يقول تعالى:**

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(الحشر/ ٤).

ذلك الذي حل بهم من الإخراج والجلاء لأنهم شاقوا الله ورسوله ،" والشقاق المخالفة ، أي صاروا في شِق غير شِق أوليائه"[١] ، فخالفوا أمر الله ورسوله ، ولم يكونوا من أولياء الله وأولياء رسوله. حذف لفظة رسولهﷺ في "من يشاقّ الله " ذلك أن اليهود يحاربون الإسلام والدين فلا يهمهم حرب الرسول[٢] ، ويمكن القول إنّ مخالفتهم كانت لله قبل رسولهﷺ، ومحاربتهم لله قبل محاربة الرسول، ولعل وعيد الله بعذابهم يتفق مع إسقاط لفظة "رسوله"، فالله هو معذّبهم لا رسولهﷺ.

وفي "يشاقّ"يجوز فك إدغام" القاف" لأنه فعل مجزوم ؛ إلا أنها أدغمت لتناسب وجوب إدغام القاف في شاقّوا[٣] ، ولعل تضعيف القاف يدل على مضاعفة المشاقة ، فهي مشاقة لله ورسوله ﷺ ؛لأن مشاقة الله تتضمن مشاقة الرسولﷺ فجاء حرف القاف مضعفاً.

• **إيذاء بني إسرائيل أنبياء الله ، يقول تعالى:**

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف/ ٥).

إذ ظرف لما مضى من الزمن يفيد التحقيق[٤]، الذي يؤكد وقوع أذى بني إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام،آذوه بجحود الآيات ، وقذفه بما ليس فيه ، وعصيانه وتكذيبه ، وخرج الاستفهام عن هذا الأذى "بما" توبيخاً لهم ، أوتقريرًا، أوتعجباً[٥]، يبدو أن كل هذه المعاني محتملة ؛ لأنه قد تحقق علمهم بأنه رسول الله إليهم ، فكان عقوبة ميلهم عن الحق أن أمال الله قلوبهم عن اتباع الهدى والحق ، فهم قوم فاسقون،" والفسق: خروج عن حَجْر الشرع ، وذلك من قولهم فسق الرطب خرج عن قشره ، وهو أعم من الكفر، ويقع

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة شقّ.

(٢) انظر: إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني : ٢٥٥.

(٣) انظر شرح ابن عقيل ٤: ٢٧٣– ٢٧٤.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني ١٨٥.

(٥) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٤٢ ، والمحرر الوجيز٥: ٣٠٢

بالقليل من الذنوب" [1] ؛ لذلك وصفهم الله بالفسق، ولم يصفهم بالكفر، فقد خرجوا عن حدود ما شرع الله لهم، وهم أهل كتاب يؤمنون بوجود الله.

وفي إيذائهم لعيسى عليه السلام ومحمد ﷺ ، يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الصف/ ٦).

خاطبهم عيسى عليه السلام بيا بني إسرائيل، ولم يخاطبهم خطاب موسى عليه السلام يا قومي ؛ لأنه لا نسب له فيهم فلم يكن له فيهم أب ، فهو ابن مريم ، لا أب له فينسب إليهم ، فلم يكن منهم ، لكنه أرسل إليهم، بينما خطاب موسى لهم بيا قومي يدل على نسبه إليهم ، وقد أكد خطابه لهم بإنّ في الجملة الخبرية "إني رسول الله إليكم " لأنهم أنكروا رسالته، التي كانت تصديقًا للتوراة ، وتبشيرًا برسالة محمد ﷺ وهذا يدل على وحدة الأديان السماوية ، لكنهم أنكروا رسالة عيسى عليه السلام، ورسالة محمد ﷺ واتهموه بالسحر [2].

فإيذاء بني إسرائيل وقع لنبيهم موسى عليه السلام ، ثُم وقع لعيسى عليه السلام ، ثُمّ أنكروا رسالة محمد ﷺ.

- **إن بني إسرائيل لم يحملوا تعاليم توراتهم ، يقول تعالى:**

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(الجمعة/ ٥).

الفعل حُمّلوا مبني للمجهول فلم يُسمَّ فاعله للعلم به [3] فالفاعل معلوم ، إنه الله سبحانه وتعالى، والزيادة في الفعل تفيد التكليف والكثرة، فهذا تكليف لبني إسرائيل من الله للقيام بأوامر ونواهٍ جاءت في التوراة ، ولم يقوموا بهذا التكليف فحالهم حال الحمارالذي يحمل أسفارا ولا ينتفع بها، والأسفار الكتب الكبار، والسِّفر الكتاب الذي

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، مادة فسق.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٥: ٣٠٢ ، والكشاف ٦: ١٠٥ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٤٤٢

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣: ١٤٤ .

يسفر عن الحقائق([1]) ، وكذلك قال بعض المفسرين الأسفار كتب كبيرة من كتب العلم ، وتسفر عن المعنى([2]) ، والذم في الظاهر للمثل في "بِئْسَ مَثَلُ" ولكن المقصود ذم القوم الذين لم ينتفعوا بما جاء في التوراة ، فحُذف المخصوص بالذم ؛ لأن السياق يدل عليه، فبئس القوم الظالمون لأنفسهم بعدم الاتباع لأمور دينهم ، والانتقاع بتعاليم كتابهم.

• **كذب بني إسرائيل في زعمهم أنهم أولياء الله ، يقول تعالى:**

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۞ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (الجمعة/ ٦- ٨).

يخاطب الله اليهود بقوله هادوا من الهَوْد وهو الرجوع برفق ، وصار الهَوْد التوبة ([3])، ويبدو- والله أعلم- في هادوا تذكير لهم بتوبتهم وعودتهم إلى الله بعد ما اتخذوا العجل إلهاً ، وجاء في سياق أسلوب الشرط أن يتمنوا الموت حتى يلاقوا ربهم ، لأنه يعلم أنهم لن يفعلوا ، "ودخول لا النافية على الفعل المضارع خلصته للاستقبال"([4])، وأُتبعت بأبداً لإخبارهم بحالهم المستقبلة ؛ فظرف الزمان أبداً يدل على التأكيد في المستقبل ([5])، وحرف الجر الباء في (بما) يبين سبب عدم تمنيهم الموت ؛ لما أسلفوا من تكذيب وكفر، " فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ " جملة خبرية مؤكدة بأن مصيرهم الموت ، "ودخول الفاء على الجملة لِتضمن الذي معنى الشرط ، ويجوز أن تكون الفاء استئنافًا بالوقوف في القراءة عند منه"([6])، وتعريف

---

(١) لسان العرب ، والمفردات في غريب القرآن مادة سفر.

(٢) الكشاف ٦: : ١١١ ، و الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٧٢.

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن مادة هود.

(٤) الجنى الداني في حروف المعاني ٢٩٦.

(٥) انظر: بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز١٠: ١٢٨.

(٦) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٧١، والجامع لأحكام القرآن ١٨: ٧٣.

الغيب والشهادة باللام يفيد الاستغراق الحقيقي ، أي كل غيب وشهادة[1] ، فعلم الله مطلق فهو لا يخفى عليه ما ذهب إليه بنو إسرائيل من أقوال وأفعال ، يكذبون فيها ما جاء في توراتهم من تعاليم دينية كالبشارة برسالة محمدﷺ، فقد كشف القرآن زعمهم وكذبهم باستعمال أكثر من أسلوب كضرب الأمثلة ، وأسلوب التأكيد والنفي.

ومن الملاحظ أن هذه المضامين والدلالات بدأت بذكر النبي موسى عليه السلام، والتوراة المنزلة عليه هدى لهم ، وبأنهم من ذرية نوحعليه السلام العابد الشاكر، ثُمّ جاء الحديث عن فسادهم في الأرض، وعلوهم وإذلالهم كلما عادوا إلى الفساد ، وهذا إشارة إلى عدل الله وفضله على عباده أن يبعث الرسل لهداية أقوامهم ، لكن بني إسرائيل عادوا إلى فسادهم ، ومنهم بنو النضير الذين أُخرجوا من ديارهم ، واستمروا في فسادهم ، وعدم حملهم أمانة العلم .

ومن الجدير بالذكر أن بني إسرائيل خوطبوا بهذا اللقب في القرآن الكريم ولم يخاطبوا ببني يعقوب وهو الاسم الأصلي لإسرائيل ؛ تذكيراً لهم بدين أسلافهم موعظة لهم ، فنسبهم إلى إسرائيل تذكرة بالله فإسرائيل اسم مضاف إلى الله سبحانه وتعالى ، ومعناه صفوة الله أو عبد الله ، وإيل هو الله بالعبرية [2] ، ويمكن القول بما أنه كان في علم الله أن بني إسرائيل سيفسدون في الأرض إفسادًا متكررًا ، فخاطبهم ببني إسرائيل لقب نبيه يعقوب عليه السلام ، و لم يخاطبهم باسمه الأصلي تكريمًا له ، فكأنهم لا يستحقون النسب إلى اسمه الكريم لفسادهم ، والله أعلم ، ولكن التذكير بدين أسلافهم رأي راجح ؛ لأن من عدل الله ورحمته بعباده ؛ أن يبعث الرسل لهداية البشر، ومن رحمته ببني إسرائيل أن ذكرهم بانهم من ذرية مؤمنة علّهم يتوبون إلى الله ، ويعودون عن الفساد.

٥- الحث على الإنفاق والترغيب فيه :

ذُكر الإنفاق في سور المسبحات باستثناء سورة الجمعة والأعلى، ففي سورة الإسراء ذكر في الآيتين ٢٦، ٢٩ ، وفي سورة الحديد في الآيات ٧، ١٠، ١١، ١٨، وفي الحشر في الآية ٩، وفي الصف في الآية ١١، وفي سورة التغابن في الآيتين ١٦،١٧.

---

(١) انظر: تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع ٣٠.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن ١: ١٦١، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل ٤٨.

• **وجوه الإنفاق ، وارتباط الإيمان بالإنفاق، يقول تعالى:**

﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾ (الإسراء/ ٢٦) .

تبدأ الآية بفعل الأمر"آتِ" وهو أمر وجوب؛ فهذا أمر من الأعلى، وهو الله ، إلى الأدنى ، وهو الإنسان ، وقيل الخطاب خاص للنبي ﷺ ، والمُراد به الأمة ، فمن وجوه الإنفاق معونة ذوي القربى بالمال وغيره ، ومعونة المساكين، وأبناء السبيل الذين لا يجدون ما ينفقون ، وتضمنت الآية نهيًا عن التبذير أي "التفريق ، وأصله إلقاء البذر وطرحه ، واستعير لكل مُضيع لماله"(١) ، والتبذير عند المفسرين إنفاق المال في فساد، وفيما لا ينبغي ، وعلى وجه الإسراف(٢) ، وقد تضمنت الآية أمرًا بالإنفاق دون تبذير، ونهيًا عن التبذير، وتأكيد النهي بلا الناهية والمصدر المؤكد لفعله " تبذيراً".

وفي ارتباط الإيمان بالإنفاق ، يقول تعالى:

﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾(الحديد/ ٧) .

في هذه الآية جاء الأمر صريحًا بالإنفاق في قوله "أنفقوا" مسبوقًا بالأمر بالإيمان بالله ؛ لأن من تحقق الإيمان في قلبه يمتثل أمر الله دون تردد ، فينفق بعض ماله حيث أفادت من المدغمة في ما التبعيض، لأنكم مستخلفون في المال، أي أنكم خلفاء عن الله فهو المالك الحقيقي للمال ، أو جعلكم خلفاء عمن كان قبلكم حيث انتقل ما يملكون من، مال إليكم(٣) ، ترى الباحثة في هذا الأمر أن المعنى الأول أظهر؛ لأن الإنسان هالك ، وماله كذلك ولو بعد حين ، والرزق بشتى أشكاله من الله فيقول تعالى :﴿ **وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ (الذاريات/ ٢٢)، فالإنسان لا يملك شيئاً ؛ لأن الله مالك السموات

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، مادة بذر ، وانظر أساس البلاغة ، مادة بذر.

(٢) انظر المحرر الوجيز٣: ٤٥٠ ، والكشاف ٣: ٥١٢، والتفسير الكبير٢٠ : ١٩٥

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل٢: ٤١٠ ، والكشاف ٦: ٤٣ ، روح المعاني ٢٧: ١٦٩ .

والأرض ، فماذا يملك الإنسان بعد ذلك ، فهو فعلاً خليفة الله بقوله تعالى:﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ (البقرة/ ٣٠) ، وهذا أدعى إلى الإنفاق ، والترغيب فيه ، فمن يملك المال هو الله سبحانه وتعالى.

وقد تكرر الإيمان والإنفاق مرة أخرى في الآية لتقريرأجر المنفق وتأكيده ، وجاء نكرة " أجر" لتفخيمه ، ووصِف بالكبير أيضًا تعظيماً لحجم هذا الأجر(١) ، قياساً إلى ما أنفق الإنسان في حياته ، فالإنفاق في هذه الآية جاء في سياق الترغيب فيه من خلال التكرار ، وعظم الأجر.

الأمر بالإنفاق ، والترغيب فيه وقت الشدة ، والاعتدال فيه:

في الأمر بالإنفاق، يقول تعالى:

﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (التغابن/ ١٦).

الأفعال الثلاثة اسمعوا، وأطيعوا ، وأنفقوا معطوفة على اتقوا محذوف مفعولها؛ لأنه معلوم من السياق، فاسمعوا أمر الله وأطيعوا ما تؤمرون، وأنفقوا من أموالكم ، وقدموا خيرًا (٢)، وإن تقدم الأمر بالتقوى، أي "حفظ النفس عما يُؤثِم وترك المحظور"(٣) ، وتقدم الأمر اسمعوا وأطيعوا يجعل الإنسان مؤهلاً للإنفاق بقناعة وإخلاص .

وفي الترغيب بالإنفاق وقت الشدة ، يقول تعالى:

﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ (الحديد/ ١٠).

بعد أن أمرهم في الآية السابقة بالإنفاق يوبخ من لا ينفقون في وجوه الخير بقوله تعالى" وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا" ، أي ما الذي يمنعكم من الإنفاق ، ويزداد التوبيخ عندما يقول الله "

---

(١) انظر: روح المعاني ٢٧: ١٦٩

(٢) انظر الكشاف ٦: ١٣٦ ، وبلاغة القرآن في الإعجاز١٠ : ١٦٩

(٣) المفردات في غريب القرآن مادة وقى.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " أي إن الله يرث الأرض والسماء بما فيهما من أموال وغيرها ، وفي ذلك ترغيب في الإنفاق([1]) ، وقد اقتضى المعنى تقديم الخبر شبه الجملة " لله" لأهميته ، فميراث السماوات والأرض مختص بالله ، فالله عز وجل هو الوارث ، فلِمَ يخشى الناس الإنفاق؟ وينفي الله المساواة في الأجر بين من أنفق قبل الفتح وبعده ، وقد حذف المضاف إليه فالتقدير بعد الفتح ، فقد تقدم مايدل عليه في السياق، وقد ذكر بعض المفسرين على أن المقصود بالفتح فتح مكة، وبعضهم قال صلح الحديبية([2]) ، فمن أنفق قبل الفتح أعظم أجرًا ؛ لأن الإنفاق كان في وقت اشتدت حاجة المسلمين له قبل ظهور قوة الإسلام ، وقد وعد الله كلا الفريقين الجنة باختلاف الدرجات ، ومما يدل على هذا الوعد لهم تقديم المفعول به كلاً ، فلا مسوغ لتقديمه على الفعل والفاعل إلا لأهميته وشدة العناية به، فمن أنفق قبل الفتح أو بعده وعده الله بالأجر ، فالله عالم بأعمالكم ، محيط بها لاتخفى عليه ، يجازيكم بها ([3]) ، يأتي الحديث عن الإنفاق في سياق الترغيب فيه ، واختلاف درجة الأجر بين من أنفقوا في وقت الشدة ومن أنفقوا في وقت الرخاء ، فجاءت الجملة الخبرية "أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً " تؤكد اختلاف الأجر، فلا يستوي أجر من أنفق قبل الفتح مع من أنفق بعد الفتح في الثواب ، واسم التفضيل أعظم يؤكد فضل من أنفق في وقت الشدة على من أنفق في الرخاء.

وفي الاعتدال في الإنفاق ، يقول تعالى:

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(الإسراء/ ٢٩).

تضمنت الآية نهيًا عن البخل إلى حدّ شد الإنسان يده إلى عنقه فيحبسها عن العطاء ، أو يبسطها إلى حد الإسراف ، " فيقعد ملومًا محسورًا" الفاء تقع في جواب النهي([4]) فيقعد

---

(١) انظر المحرر الوجيز٥: ٢٥٩ ، التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١١ ، روح المعاني ٢٧: ١٧١

(٢) انظر: لتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١١، والجامع لأحكام القرآن ١٧: ١٨٢.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٥: ٢٥٩ ، الكشاف ٦: ٤٥.

(٤) انظر الجنى الداني في حروف المعاني ٧٤ ، معاني القرآن وإعرابه ٣: ٢٣٤.

في حال من اللوم من الناس ومن الله على إسرافه وبخله ، ومحسورًا نادمًا مغمومًا منقطعًا كمن حسره السفر فأعياه ، فهو غاية الإعياء والتعب[1] ، فهذا المعنى دعوة إلى الوسطية التي دعا إليها الإسلام ، فللإنفاق حد إذا تجاوزه الإنسان كان حاله كما وصفته الآية .

●**الإنفاق والقرض الحسن، يقول تعالى:**

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾(الحديد/ ١١).

الاستفهام في الآية ترغيب وحث على الإنفاق، والقرض "ما يدفع للإنسان من المال بشرط رد بدله"[2]، فيكون رده بأضعاف مضاعفة، حيث جاءت الفاء السببية التي تبين سبب مضاعفة الأجر، وهو القرض الحسن الخالص لوجه الله تعالى، [3] ، فهذا قرض لله لا لبشر، فيُرد القرض مضاعفًا، وتقتضي هذه المضاعفة أن يكون الأجر كريمًا يناسب الزيادة في الأجر، فالقرض استعمل مجازًا ليدل على مضاعفة أجر المنفقين ، وزيادة في الترغيب وصف الأجر بأنه كريم ليتناسب مع حسن الأجر ومضاعفته.

وفي السياق نفسه ، يقول تعالى:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد/ ١٨).

المصَّدقين بمعنى المتصدقين، وقُرِئت بتخفيف الصاد المصَدقين بمعنى الصدق، أي الذين صدقوا رسول الله فيما بلّغ عن ربه وآمنوا ، "وأقرضوا الله" جملة معطوفة بالمعنى على المصدقين ، فكأن أقرضوا عطف على فعل اصدّقوا وذهب إلى المعنيين معظم المفسرين [4] ، وقد ذهب الزجاج إلى المعنى الثاني فقال :"ومعناه أن المؤمنين والمؤمنات ممن صدق الله ورسوله، فآمن بما أتى النبي"[5]، المعنيان متفقان ، فمن صدق الله

---

(١) انظر التسهيل في علوم التنزيل ٢: ٤٨٦ ، وروح المعاني ١٥: ٦٥ ،ومعاني القرآن وإعرابه ٣: ٢٣٦.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة قرض.

(٣) انظر روح المعاني ٢٧: ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١٣ ، والكشاف ٦: ٤٩.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٢٦.

ورسولهﷺ يعمل بما أتى به الرسول عن ربه ، فيتصدق كما أمر الله ، وإن كان بمعنى الصدقة ؛ فالصدقة ضرب من ضروب الإنفاق المشروع .

ونلاحظ تنوع أسلوب الحث على الإنفاق في سورة الحديد بين الاستفهام والأمر ، والجملة الخبرية التي تؤكد مضاعفة أجر المنفقين ، وكذلك التنوع في الألفاظ المستعملة في هذا السياق بين الإنفاق والقرض، والتصدق ، يدل على الحث على الإنفاق، والترغيب فيه، ونفعه للمنفِق والمنفَق عليه.

وفي السياق نفسه، يقول تعالى:

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيم﴾ (التغابن/ ١٧).

جاء الحث على الإنفاق في هذه الآية في سياق الشرط ، فإن تنفقوا أموالكم بنية خالصة متقربين إلى الله يَجْزِكم ضعف ما أنفقتم؛ لأن الله شكور لمن يتقرب إليه ، حليم لا يعاجل بالعقوبة ، فالشكر متفق مع مضاعفة الأجر، والحلم متفق مع الغفران ، وفي سورة الحديد جاء الإقراض في سياق الترغيب في قوله تعالى:**﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾**(الحديد/ ١١) ، وزيادة في الترغيب وصف الأجر بأنه كريم مع حسن الأجر ومضاعفته.

- **الإنفاق والإيثار على النفس، يقول تعالى:**

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون﴾ (الحشر/ ٩).

لم يذكر الإنفاق ذكرا مباشرًا في هذه الآية فمحور الحديث فيها الإيثار، والإيثار" تقديم الغير على النفس، وحظوظها الدنيوية ، رغبة في الحظوظ الدينية ، وآثرته بكذا خصصته وفضلته"[١]، فقد أحب الأنصار المهاجرين ، وأجمع المفسرون على أن " وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا " هم الأنصار، والضمير في قبلهم يعود على المهاجرين ، والدار المدينة ، أو دار الإيمان

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٢١.

والهجرة ، وعطف الإيمان على الدار بتقدير فعل محذوف: اعتقدوا أو أخلصوا الإيمان، أو حذف المضاف دار، أي دار الإيمان، والمعنى أن الأنصار يحبون المهاجرين ، ومما يدل على ذلك أنهم لايجدون في أنفسهم حاجة لما أُعطِي المهاجرون من الفيء، فطابت أنفسهم ، وقدموا المهاجرين على أنفسهم ولو لم يجدوا ما يسد حاجتهم، وفي الجملة الشرطية " وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون " إشارة إلى الأنصار ومدح لهم، فقد وقاهم الله شُح أنفسهم ، أي البخل الذي من طبع النفس لذلك أُضيف إليها، فمن كانت هذه صفاتهم ، فقد ظفروا بحظهم في الآخرة ، وهذا ما أرادوا (١) ، فهؤلاء حرموا أنفسهم مما كانوا بحاجة إليه لينفق على غيرهم ، فيبدو أن الإيثار أعلى درجة من الإنفاق، فكان جزاء الذين يؤثرون على أنفسهم الفوز بالآخرة ، وليس مضاعفة الأجر فقط ، ففي ذلك دعوة إلى الإنفاق، وترغيب فيه ؛ لأن الإيثار تقديم الآخرين على النفس ، وقد يكون بالإنفاق عليهم.

- **الإنفاق والجهاد في سبيل الله ، يقول تعالى :**

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الصف/ ١١).

الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله ، خير لكم من أموالكم ومن أنفسكم إن كنتم تعلمون أنه خير، وتقدم المال على النفس ؛ لأن الجهاد تبدأ العدة له بإنفاق المال(٢)، فهذا موضع آخر للإنفاق، وأي موضع أعظم من إنفاق المال على الجهاد في سبيل الله. في قوله "إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"، أي تعلمون الخير حث على ما تقدم من أعمال الخير، ومنها إنفاق المال في سبيل الله.

ويلاحظ في الحديث عن الإنفاق البدء بتحديد وجوه الإنفاق في سورة الإسراء ، ثُم الاعتدال فيه ، وقد تميزت سورة الحديد بتناولها الإنفاق في غير موضع ، حيث ذُكر في أربعة مواضع من السورة وقد يُرد ذلك إلى أن الإنفاق يتفق مع محاور السورة الرئيسة ،

(١) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٢٩- ٤٣٠ ، والكشاف ٦: ٨٠-٨١.

(٢) انظر الكشاف٦: ١٠٧ ، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٦٦.

وهي "إن الكون كله لله سبحانه وتعالى، ووجوب التضحية بالنفس والمال لإعزاز دين الله ، وتصوير حقيقة الدنيا الفانية"[1] فكل هذه المحاور تدعو إلى الإنفاق، فالكون بكل ما فيه من نعم وأموال ملك لله ، والتضحية تستوجب إنفاق المال، والدنيا الفانية مدعاة لإنفاقه في وجوه الخير من غير تبذير .

وجاء الأمر بالإنفاق مقترنًا بالإيمان بالله ، ومضاعفة الأجرللمنفق والمتصدق ، وفي سورة الصف جاء الإنفاق مرتبطًا بالجهاد في سبيل الله ببذل المال والنفس.

٦- التشريع والفرائض :

تضمنت سور المسبّحات جانبًا من التشريع والفرائض، منها فريضة الصلاة التي ذكرت في سورة الإسراء في الآيتين ٧٨- ٧٩ ، وفريضة القتال في سورة الحديد في الآييتين ١٠، ٢٥ ، وفي سورة الحشر في الآية ١٤، وفي سورة الصف في الآية ٤.

- **إقامة الصلاة المفروضة ، والحث على التهجد ، يقول تعالى:**

﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(الإسراء/ ٧٨).

"فأقم" أمر بإدامة فعل الصلاة والمحافظة عليها"[2]، ودلوك الشمس: زوالها ، إشارة إلى الظهر والعصر وغسق الليل ظلمته ، إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الصبح ، وقرآن معطوف على الصلاة ، أو مفعول به لفعل محذوف اقرأ، ومشهودًا : تشهده ملائكة الليل والنهار فتصعد ملائكة الليل ، وتنزل ملائكة النهار، وإلى ذلك ذهب معظم المفسرين[3] ، فقد جمعت الآية الصلوات المفروضة ، مما يدل على أهمية الصلاة ، فهي ركن من أركان الإسلام ، وما التعبير عن صلاة الفجر بالقرآن إلا دليل على عِظم

---

(١) صفوة التفاسير ١٧: ٧٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن، مادة قام.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٣: ٤٧٧- ٤٧٨ ، والتسهيل لعلوم التنزيل١: ٤٩٤ ، والكشاف٣ :٥٤٢.

صلاة الفجر، وعظم القرآن ، فكان ومازال تشهده الملائكة؛ "فكان وإن كانت للماضي لا تستلزم الانقطاع ، بل المراد أنه لم يزل كذلك"(١) ، أي مشهودًا.

أمّا في الحث على التهجد، فيقول تعالى:

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾(الإسراء/ ٧٩).

بعد فرض الصلاة المكتوبة أُمر بصلاة التهجد بدليل واو العطف ، والتهجد من فعل هجد ، "ويقال هجد إذا نام، والهاجد النائم ، وإن صلّى ليلاً فهو مُتهجد ، كأنه بصلاته ترك الهجود عنه"(٢) ، والهجود يكون في بعض الليل ؛لأن من للتبعيض ، ونافلة أي "زيادة على الواجب"(٣) ، عسى أن يبعثك الله يوم القيامة ، مقاماً محمودًا يشفع فيه الرسولﷺ لأمته ، فالخطاب للرسولﷺ (٤)، فقد جاء في تفسير ابن كثير "إنما جعل قيام الليل في حقه ، أي الرسولﷺ نافلة على الخصوص ؛ لأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر بصلواته النوافل الذنوب التي عليه"(٥)، وقد روى ابن عمر في صحيح البخاري" إنّ الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا ، كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع لنا حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيﷺ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود"(٦) ، لعله يستدل من هذا الحديث على صحة ما جاء في تفسير ابن كثير من أن قيام الليل نافلة في حق الرسول ، فهو الذي سيبعثه المقام المحمود ليكون شفيًعا لأمته ، وهذه النافلة في أمته تكفيرٌ للذنوب ، وهذا من رحمة الله وتفضله على عباده ، والعجيب أن يؤمر بإقامة الصلاة في سورة الإسراء ، وتفرض ليلة أُسري بالرسولﷺ.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤٧٦.

(٢) مقاييس اللغة ،مادة هجد.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة هجد.

(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٩٥ ،والكشاف ٣: ٥٤٢

(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢: ٣٩٢.

(٦) صحيح البخاري ٥: ٢٧٦ برقم ٤٧١٨.

فريضة القتال:

•الإيماء إلى فريضة القتال ، وبيان فضل المقاتلين ، والتشجيع على القتال ، يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد/ ٢٥) .

في قوله " وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ " إيماء بالقتال ، فقد رأى عدد من المفسرين أن الحديد السلاح حيث ألهم الله البشر استعماله في صناعة السلاح من رماح وسيوف وغيرها ، والذي يؤكد استخدامه في القتال قوله "وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ "، ونصرة الله ورسله باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح ، وكذلك يستعمله الناس في مصالحهم ومعاشهم (١) ، وهذا لا يعني أن نصر الله يقتصر على استعمال السلاح ، فهناك الكثير من الوسائل كتصديق رسله ، واتباع ما جاء في كتبه ، ولا يقتصر استعمال الحديد في القتال ؛ فقد استعمل في الصناعات المختلفة ، وحتى استعماله في الجهاد فيه منافع ، ففيه نفع للأمة وذلك بدفع الضرر عنها، أو الشهادة في سبيل الله ، فكلا الأمرين فيهما النفع.

في فضل المقاتلين ، يقول تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَاتَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد/ ١٠).

في هذه الآية يتبين فضل المقاتلين ، فلا يستوي في الفضل الذين أنفقوا وقاتلوا مع الرسول قبل فتح مكة مع من أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح ، فهم أعظم أجرًا ، فقتالهم قبل

---

(١) انظرالمحررالوجيز ٥: ٢٦٩، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤١٥ ، والكشاف٦ :٥١، والتحرير والتنوير٢٧: ٤١٧.

الفتح كان فيه مشقة ، لأن المسلمين كانوا أقلة إلى جانب أعدائهم من المشركين والمنافقين(١).

وفي التشجيع على القتال ، يقول تعالى:
﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر/ ١٤).

في هذه الآية يصف الله قتال اليهود والمنافقين للمؤمنين ، فهم لا يقاتلون المؤمنين مجتمعين إلا في قرى محمية بالأسوار والخنادق ، أومن وراء الحيطان ، لا يخرجون إليهم، فهذا قتال الجبناء يخافون المواجهة في القتال ، وإذا حاربوا الله ورسوله قلوبهم متفرقة لا تجمعهم محبة أو أُلفة ، لأنهم لايعقلون أن التفرق يضعف قواهم(٢) ، ففي ذلك تشجيع للمسلمين على قتال اليهود والمنافقين المتفرقين الذين لا طاقة لهم على مواجهة المسلمين المسلحين بقوة الإيمان.

- **تشريع القتال ، يقول تعالى:**

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف/ ٤).

المقاتلون في هذه الآية يحبهم الله ويؤكد محبته لهم بإنّ ؛ لأنهم يقاتلون مصطفين في استواء وكبناء مرصوص" والرص انضمام الشيء إلى الشيء بقوة وتداخل ، وكأنه مشتق من الرصاص"(٣) ، وإلى هذا المعنى ذهب المفسرون ، فالمقاتلون صافون أنفسهم من غير فرجة وخلل ، يصفون أنفسهم كأنهم بُنْيان رُص بعضه إلى بعض ، ويجوز أن الاستواء استواء النيات وثبات الكلمة (٤)، وتقدم الجار والمجرورفي سبيله على الصف يدل على أهمية النية الخالصة للقتال في سبيل الله على الصف(٥)، وهذه دلالة محتملة ؛ فرصّ

---

(١) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٢١٢ ، وصفوة التفاسير ١٧: ٧٧– ٧٨.
(٢) انظر التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٣٠ ، والكشاف ٦: ٨٢ ،و روح المعاني ٢٨: ٥٨.
(٣) مقاييس اللغة، مادة رصّ.
(٤) انظر: الكشاف ٦: ١٠٣ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٤٢ .
(٥) انظر: على طريق التفسير البياني١: ٢٠٩.

الصفوف يحتاج إلى استواء النية وثبات الكلمة حتى يكون فاعلاً، ومن الملاحظ أن حروف كلمة المرصوص موحية بمعنى القوة والتماسك والتداخل ، وهذا "ما لاحظه علماء العربية من مناسبة حروف العربية لمعانيها وصوت الحرف معبر عن غرض فكل حرف له ظل وإشعاع "[1] ، وكلمة بنيان تناسب سياق الآية ؛ فاستعمل البنيان مع ما بناه البشر والبناء مع السماء بناء الله [2]، وعلى هذا النحو فاستعمال البنيان يتناسب مع إدراك الإنسان ومشاهدته الحسية لما بناه، فهذا تقريب للمعنى.

يلاحظ ترابط المضامين التي عرضت في هذا الباب رغم أنها من عدة سور ، مما يدل على اشتراك المسبحات في بعض المضامين ، واتساق القرآن في نظمه ومعناه.

ب- الدلالات المفردة :

من أبرز الدلالات المفردة التي انفرد بها بعض سور المسبحات عن بعضها الآخر ما يلي:

- الفضائل الخُلقية ، وذلك في سورة الإسراء في الآيات(٢٣- ٣٨) .
- الغرض من بعث الرسل عليهم السلام في سورة الحديد في الآيتين(٢٥- ٢٦).
- فضل أصحاب الرسولﷺمن المهاجرين والأنصار، وذلك في سورة الحشر في الآيات (٨-٩).
- الدعوة إلى نصرة دين الله في سورة الصف في الآية (١٤).
- أحكام صلاة الجمعة في سورة الجمعة في الآيات (٩-١١).
- التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال في سورة التغابن في الآيتين (١٤- ١٥).
- وعد الرسول بحفظ القرآن الكريم في سورة الأعلى في الآيتين (٦-٧).

---

(١) دراسات في فقه اللغة: ١٤٢.

(٢) انظر: على طريق التفسير البياني ١: ١٤٢.

١- مجموعة من الفضائل الخُلقية ، يقول تعالى:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۞رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ۞ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۞ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا۞ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًابَصِيرًا ۞ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً ۞ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ۞وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۞ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ۞ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ۞ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾(الإسراء/ ٢٣-٣٨) .

تميزت سورة الإسراء بمجموعة من الفضائل الخُلقية ، تقدمها الأمر بعبادة الله ، والنهي عن عبادة غيره ؛ لأن عبادة الله أصل حُسن الخُلق، فمن يعبد الله يمتثل أمره ونهيه ، ومن هذه الفضائل الخلقية ما يلي:

- **الإحسان إلى الوالدين:**

في قوله " وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا "، أي أحسنوا إلى الوالدين إحسانًا مطلقًا غير محدود ، وما دلالة تقدم الوالدين على الإحسان إلا على ضرورة رعايتهما ، وشدة الاهتمام بهما في

حالة كبرهما عندك في بيتك وكنفك ، ومن وجوه الإحسان لهما أن لا تتلفظ بما يؤذيهما ولو بكلمة "أُفٍّ" ، وهي اسم فعل بمعنى أتضجر، أو تغلظ لهما القول ، وقل لهما قولاً حسنًا لينًا[1] ، والإحسان أن يعطي ما عليه ويأخذ أقل مما له ، فهو فوق العدل ؛ لأن العدل أن يعطي ما عليه ويأخذ ما له [2] ، وهذا وجه استعمال الإحسان لا العدل ، فالوالدان يجزيان بالإحسان لا بالعدل ، فالعدل معاملة المثل بالمثل ، وهذا لا يكون مع الوالدين، وإن وقع منهما تقصير في تربية الأبناء ، والله أعلم ، ووجه الربط بين عبادة الله والإحسان إلى الوالدين أن السبب الحقيقي في وجود الأبناء هو الله ، والسبب الظاهري هو الأبوان فأُمر بتعظيم السبب الحقيقي ثُمّ الظاهري ، وقد تقدم ذكر الوالدين على الإحسان ليدل على شدة الاهتمام وضرورة رعايتهما في كبرهما ، وتنكير المصدر "إِحْسَانًا" لإفادة التعظيم[3] ، ويمكن القول إن المصدر يدل على الحدث المطلق ، فهو إحسان مطلق غير محدود ومن أقل مراتب الإحسان أن لا تتلفظ بكلمة "أُف" ، وهذا مفهوم موافقة أي ما يوافق حكمه المنطوق ، فدلالة " فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ " تحريم ما هو أكثر أذى من هذه الكلمة كالضرب[4] ، ويتبع النهي عن الزجر والأذى الأمر بالتذلل لهما في قوله" وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ " بمعنى اخفض جناحك الذليل ، أو أن يجعل للذل جناح على سبيل المجاز، مبالغة في التذلل لهما رحمة بهما وعطفًا عليهما لكبرهما وحاجتهما إليك، كما كنت أفقر الناس حاجة إليهما، والله يعلم ما في نفوسكم من قصد البر بهما أو غيره ، وإن رجعتم إلى الله وتبتم إليه يغفر لكم تقصيركم في حقهما[5].

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل١: ٤٨٥

(٢) المفردات في غريب القرآن ، مادة حسن.

(٣) انظر: التفسير الكبير٢٠: ١٨٦، ١٨٨.

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن ٤٨٦.

(٥) الكشاف٣: ٥٠٨.

•إعطاء المحتاجين حقوقهم ، والنهي عن التبذير:

في قوله تعالى:"وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ" ، أمر بإعطاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقهم من الإنفاق عليهم ، وحُسن معاملتهم ، وغير ذلك من الحقوق ، وفي قوله "وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" نهي عن التبذير، وتأكد هذا النهي بالجملة الخبرية " إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ "، فالمبذرون إخوان الشياطين، والأخوة المشاركة ، كمشاركة الأخ أخاه في الولادة([1])، فهم شركاؤهم، وعند الزمخشري أنهم أصدقاؤهم أو قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد([2])، وهذه دلالة محتملة لمشاركة المبذرين الشياطين في فعل القبائح والشرور من تبذير وإسراف، ويؤكَّد كفر الشيطان بصيغة المبالغة كفور، فهو كثير الكفر في ما يجب طاعته لله.

وفي قوله " وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا " جملة شرطية ترتب على الإعراض عن إعطاء المحتاجين القول الحسن، كأن يقال لهم رَزَقكم لله ، فالإعراض ليس إعراض الوجه إنما المقصود عدم نفعهم لأجل" رحمة أي رزقًا تنتظره ، أو أجراً وثوابًا لقولك الميسور([3])، واحتمال انتظار الرزق أقرب لسياق الآية ؛ فالجار والمجرور "مِّن رَّبِّكَ" جاء تاليًا "رحمة" حيث إن الرزق من عند الله ، والله أعلم ، وفي قوله تعالى: " وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" نهي عن البخل والإسراف، مما يدل على الاعتدال الذي دعا إليه الإسلام في كل الأمور، وفي قوله " إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ " إخبار مؤكد بأنّ الله يوسع الرزق ويضيق على من يشاء لحكمة يعلمها ، " إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خبيرا بصيراً" ؛ تأكيد آخر بأن الله خبير بمصالح عباده ، بصير بأفعالهم ، يغني من يشاء ويفقر

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة أخو.

(٢) انظر: الكشاف ٣: ٥١٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٨٦.

من يشاء([1]) ، فخبير بصير تؤكد مضمون الآية بأن الرزق بيد الله ، يوزعه كما يشاء على عباده فلكل نفس رزقها.

- **عدم الاعتداء على حق الأولاد والآخرين في الحياة:**

يقول تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا**﴾، هذه الآية محورها حق الأولاد في الحياة، فقد نهى الله عن قتلهم ، والأولاد البنات هذا ما ذهب إليه ابن عطية والزمخشري([2]) ، ويضيف الألوسي أن الأولاد هم الذكور والإناث كما يبدو في ظاهر النص([3]) ، واحتمال المعنيين وارد ، فوأد البنات عادة جاهلية ، ونزل القرآن وبعض العرب يئدون بناتهم فأبطل هذه العادة ، والمعنى الثاني أقرب لأن "الولد الابن والابنة "([4]) ، وكانوا يقتلونهم خشية الإملاق ، والإملاق إتلاف المال حتى يُحوِج ، وإنفاق يؤول إلى فقر([5]) ، فمن يتلف ماله يحوج نفسه للآخرين ويفتقر، وفي قوله " نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم " فالله تكفل برزقهم ورزق آبائهم ، وفي تقديم رزق الأبناء على رزق الآباء ، يرى الزركشي أن الخطاب للأغنياء بدليل خشية الإملاق، فإن الخشية تكون مما لم يقع ، ورزق الأولاد هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل([6]) ، وفي قوله " إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا" الخِطء الإثم ، فيؤكد الله أن قتل الأولاد إثم عظيم يقع فيه الآباء ، وفعل غير صائب([7])، فهذا قتل من غير حق، فيه ظلم واعتداء على حياة الآخرين التي حرم الله الاعتداء عليها، أمّا في النهي عن قتل الآخرين ، فيقول تعالى :﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا

---

(١) انظر: مختصر تفسير أبن كثير ٢: ٣٧٥ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٣: ٤٥١ ، الكشاف ٣: ٥١٥ ،

(٣) روح المعاني ١٥: ٦٦.

(٤) المفردات في غريب القرآن مادة ولد .

(٥) مقاييس اللغة مادة ملق ، وانظر الإعجاز البياني للقرآن ٤٢٨.

(٦) انظر البرهان في علوم القرآن ٣: ٢٨٥ ، والإيضاح في علوم البلاغة ٩٦.

(٧) انظر الكشاف ٣: ٥٥١ .

فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ ، بعد أن تقدم النهي عن قتل الأولاد على الخصوص جاء النهي عن قتل النفس على العموم ، ويشمل النهي كل أفراد النفس وذلك بدخول أل الجنسية على نفس([1]) ، فكل نفس محرم قتلها إلا بسبب حق شرعي موجب ، وهو ما روي عن الرسولﷺ : "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث ، النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والمارق من الدين التارك الجماعة"([2])، فمن قتل مظلومًا بغير حق مما ذكر في الحديث ، فلوليه المطالبة بدمه تسلطًا على القاتل بالقصاص ، فلا يسرف في القتل أي لا يقتل غير القاتل، "إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا"، جملة خبرية تؤكد نصر الله للمقتول والولي، في حال عودة الضمير في إنه على المقتول فكان نصره بأن أوجب الله القصاص بقتله، وفي حال عودته على الولي فأوجب القصاص له ، فكلاهما منصور بالقصاص، ويرجح ابن عطية عودة الضمير على المقتول ؛ لأن لفظة النصر تقارن الظلم([3]) ، واحتمال عودة الضمير على الاثنين واردة ، فكلاهما له الحق في القصاص من القاتل.

- **حفظ المجتمع من فاحشة الزنى:**

في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ ينهى الله عن الاقتراب من الزنى بقوله :لا تقربوا ، وهو أبلغ من: لاتزنوا ، فقد نُهِي عن الاقتراب من الزنى ، فكيف بالفعل نفسه ، فهو فعل قبيح ، وطريقٌ سيءٌ يؤدي إلى النار، فبئس السبيل([4]) ،

---

(١) انظر الجنى الداني في حروف المعاني١٩٤.

(٢) صحيح البخاري ٨: ٣١٥ برقم ٦٨٧٨.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٣: ٤٥٢– ٤٥٣ ، والتسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٨٦– ٤٨٧ ، والكشاف ٣: ٥١٦.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٠٨ ،

فهو سبيل مذموم "لاستعمال ساء في الذم استعمال بئس"(1) ، فتأكد تحريم الزنى بالنهي والذم ؛ لما فيه من إضاعة حق النسب ، وكافة الحقوق ، وإفساد المجتمع.

•حفظ مال اليتيم ورعايته ، والوفاء بالعهد:

في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ، نَهْي لولي اليتيم عن أن يتصرّف بمال اليتيم إلا بما يحفظه وينميه ويصلحه "حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ" ، أي يبلغ غاية ما يمكنه عقله ورشده القيام بمصالح ماله ، " وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ " أمر بالوفاء بالعهد أي إتمام كل ما ينبغي حفظه ومراعاته مع الله ومع الناس ، وإِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً مطلوب الوفاء بالعهد ، أو صاحب العهد مسؤول عنه بتقدير المضاف صاحب ، وحذف الجار والمجرور "عنه" ، وقيل إن الكلام على التخييل كأن يقال للعهد لم نُكثت؟ تبكيتًا للناكث(2)، والراجح أن طلب الوفاء بالعهد أقرب إلى سياق الآية ؛ لأن العهد يوضع للوفاء به ، وكل معاهد يُسأل عن عهده ، ولعلّ اجتماع النهي والأمر في الآية على اعتبار أن تعهد مال اليتيم عهد يطلب الوفاء به.

وفي سياق الوفاء بالعهد يقول تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ ، "أوفوا وزنوا" فعلا أمر للوفاء بالكيل ، وإتمام الوزن بالقسطاس وهو "الميزان ويعبر به عن العدالة"(3)، ويرى الفخرالرازي أن القسطاس مأخوذ من القِسط ، يجعل فيه الاعتدال والاستقامة ، أي إتمام الكيل والوزن فيه الخير في الدنيا ، فيحمد فاعله في الدنيا ، وهو أحسن عاقبة في الآخرة(4)، وقد جاءت إذا الظرفية الشرطية لتؤكد إيفاء الكيل وقت البيع ، وتقدّم الكيل على الوزن

---

(1) شرح ابن عقيل ٣: ١٦٨.

(2) انظر التسهيل في علوم التنزيل ١: ٤٧٨، والكشاف ٣: ٥١٧ ، وروح المعاني : ٧٠- ٧١.

(3) المفردات في غريب القرآن، مادة قسط.

(4) التفسير الكبير ٢٠: ٢٠٧ ، روح المعاني ١٥: ٧٢.

يؤكد أهمية الكيل في معاش الناس في حياتهم الدنيا حيث إن "الكيل يكون للطعام"(١)، أما الوزن فمعرفة قدر الشيء ويدل على تعديل واستقامة(٢) ، فبذلك يكون الكيل خاصًا بالطعام ، والوزن أعم لدلالته على الاستقامة ، والعدل والاستقامة مطلوبان في الأمور كلها.

النهي عن تتبع ما لا يُعلم:

في قوله تعالى: " وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ " نهي عن الاقتفاء، وقفوت أثره واقتفيته تبعت قفاه ، والاقتفاء اتباع القفا، ويكنى بذلك عن الاغتياب وتتبع المعايب(٣) ، فبهذا المعنى ينهى الله عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فهذا نهي عن الحكم بما هو غير معلوم(٤) ، "إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً" فحواس الإنسان السمع والبصر والفؤاد ستكون في حالة من يعقل ، فيسألها الله عما تتبعته من غير علم ، هذا في حال عودة الضمير في عنه على "ما" ، وفي حال عودة الضمير على كل فالإنسان يُسأل عما حوته حواسه(٥) ، يبدو أن عودة الضمير على "ما" فقد استعمل اسم الإشارة أُولئك الذي يدل على العاقل ، ثُمّ إن الله يُنْطق أعضاء الإنسان لتشهد على أفعاله يوم القيامة في قوله تعالى:﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(النور/ ٢٤) ، وتخصيص السمع والبصر والفؤاد بالذكر يرتبط بتحصيل العلم عن طريق هذه الحواس، فالسمع والبصر وسيلتان لتحصيل العلم ثُمّ إن هذا العلم يستقر في الفؤاد ، وهو "كالقلب ويقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التوقد"(٦) ، وربما كان مما يتوقد به به القلب نور العلم ، فهو مستودع العلم.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ومقاييس اللغة ، مادة كيل .

(٢) مقاييس اللغة ،مادة وزن.

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة قفا.

(٤) الكشاف ٣: ٥١٧ ، وروح المعاني ١٥: ١٧٣.

(٥) انظر المحرر الوجيز ٥: ٤٥٦ ، والتسهيل في علوم التنزيل ١: ٤٨٧ .

(٦) المفردات في غريب القرآن، مادة فأد .

• **النهي عن التكبر والعُجب:**

في قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا**﴾ ، تنهى الآية عن المشي مرحًا ، والمرح شدة الفرح والتوسع فيه([1])، ويؤول الزجاج "وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا" "لا تمشِ في الأرض مختالاً ولا فخورا "([2]) ، ويمكن القول إن المعنيين متصلان، فمن يكن في شدة الفرح قد يتمايل مختالاً فيختلط الفرح بالخيلاء والفخر، " إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ " هذه الجملة علة النهي عن هذه المِشية ، فأنت لن تقطع الأرض فتستوفيها بالمشي ، أو تثقبها بشدة دوسك فيها ، وعطف عليها "وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً" ، أي ولن تبلغ طول الجبال فتصل رؤوسها([3]) ، وفي هذا المعنى تهكم، فإن "تأتي للتهكم" ([4]) ، فهذا العبد الضعيف مهما بلغ من التبختر والخيلاء لن يبلغ هذه الجمادات في طولها ومساحتها ، واستعمال حرف الجر في" في الأرض" يناسب النهي عن التبختر فمن كانت هذه حاله يتشبث في الأرض فيمشي فيها وليس عليها ([5]) ، فشدة وقع خطواته كأنها تخترق الأرض ؛ ليثبت ليثبت المتبختر وجوده على هذه الأرض الفانية.

• **حُكم المنهي عنه من الأفعال عند الله:**

في قوله تعالى:﴿ **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾(الإسراء/٣٨) خاتمة ما تقدم من منهيات ومأمورات ، فذلك إشارة إلى ما أمر الله به ونهى عنه ، "كان سيئهُ" أي أن السيئ المنهي عنه مبغض على اعتبار إضافة سيء للضمير العائد على كل ، وقرئ "سيئةً" فجاءت كل إحاطة بما نهى عنه خاصة من خصال مذمومة لا لجميع الخصال المحمودة ([6])، وقد فضل الزجاج قراءة سيئهُ على "سيئةً" لتقدم الحسن والسيئ في الآيات

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، وانظر أساس البلاغة

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٢٤٠

(٣) انظر: المحرر الوجيز ٣: ٤٥٧ ، التسهيل لعلوم التنزيل ١: ٤٨٧

(٤) دلائل الإعجاز ٣٢٦.

(٥) انظر البرهان في علوم القرآن ٤: ١٧٦.

(٦) الجامع لأحكام القرآن : ١٠: ٢١٥ ، والكشاف ٣: ٥٢٠

فمن الحسن القول الكريم للوالدين ، إيتاء ذوي القربى حقوقهم ، الوفاء بالعهد([1])، ومما يرجح قراءة سيئهُ ، أن المكروه هو السيئ وليس الحسن، فالسيئ محكوم عليه بالكره عند الله ، حيث إن "عند يراد بها الحكم"([2]) ، فمن غير المعقول أن يحكم على ما أمر الله به بالكره .

فما تقدم في الآيات الكريمة السابقة من سورة الإسراء طائفة فضائل خلقية تمثلت في عدد من المأمورات والمنهيات التي يترتب عليها التحلي بالأخلاق العظيمة ، والآداب الاجتماعية الكريمة ، بدءًا من الأمر بعبادة الله ، والإحسان إلى الوالدين ، وإيتاء ذوي القربى حقوقهم ، والنهي عما يُخل بالمجتمع المسلم ويفسده كالتبذير ، وقتل الأولاد خشية الفقر، وقتل النفس بغير حق، والإسراف في القتل ، والتصرف بمال اليتيم بغير حق، والأمر بالوفاء بالكيل ، والنهي عن تتبع المعايب ، وما لا يُعلم ، والنهي عن الخُيلاء والعُجب ، فهذا هو المجتمع المسلم المميز بهذه الفضائل الخلقية من خلال الالتزام بهذه الطائفة من المأمورات والمنهيات حفظًا للحقوق.

٢- الغرض من بعث الرسل عليهم السلام ، يقول تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد / ٢٥).

أرسل الله الرسل بالحجج والمعجزات، وأرسل معهم الكتب السماوية ، وأنزل الميزان، إمّا الميزان الحقيقي أو العدل ، فالميزان من أسباب العدل، وعلة هذا الإنزال" لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" أي "بالعدل والحق واتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم في ما أُمروا به"([3])، فإذا كان هذا الأمر من الاتباع والطاعة ، أقام الناس العدل والحق في معاملاتهم ،

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٣: ٢٤٠.

(٢) البرهان في علوم القرآن٤ : ٢٩٢.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٤٥٥.

فيمنعون الظلم ، وينشرون العدل وكلمة التوحيد التي دعا إليها الرسل عليهم السلام ، فتسعد البشرية دينًا ودنيا.

بعد ما تقدم الذكر العام للرسل عليهم السلام ينقلنا قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد/ ٢٦) إلى الذكر الخاص لبعض الرسل، فخص بالذكر نوحًا وإبراهيم عليهما السلام مُقدمًا نوحًا على إبراهيم تقديم سبق وتشريف ، فهما من أول الأنبياء ونوح يسبق إبراهيم في النبوة ، وشرفهما بالنبوة وحمل الرسالة ، وجعل النبوة في نسلهما فكل الأنبياء من بعدهما من نسلهما ، وقدم النبوة على الكتاب لأن "كمال النبي أن يصير صاحب الكتاب والشرع"[١] ، ولعل سبب التقديم أن النبوة هي الأصل، فالكتاب ينزل على من هو نبي ، ويأتي بعد النبوة ولا يتقدم عليها، و"الكتاب" كما جاء في الكشاف" الوحي ، وعن ابن عباس الخط بالقلم" [٢]، وفي المحرر الوجيز الكتب السماوية الأربعة[٣]، و يبدو أن هذه المعاني تدل على الكتاب ؛ فالوحي ينزل بالكتاب، وبالقلم يُخط الكتاب ، والكتب السماوية هي مصدر هداية البشر، والغرض من إرسال الرسل إقامة الحق والعدل، وهداية الناس إلى الرشد والصواب.

٣- فضل أصحاب الرسولﷺ من المهاجرين والأنصار:

﴿ لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر/ ٨-٩).

---

(١) التفسير الكبير: ٢٩: ٢٤٥.

(٢) انظر: الكشاف ٦: ٥٢.

(٣) انظر: المحرر الوجيز٥: ٢٦٩

الفقراء هم المهاجرون ومما يؤكد هذه الصفة ، لام الجر في "للفقراء" والغرض منها التخصيص، والفعل المبني للمجهول "أُخرِجوا " يؤكد أنهم أُجبروا على الخروج من ديارهم ، فكيف يخرجون من أموالهم ؟ يتركونها كما تركوا ديارهم، وهذا سبب فقرهم، فهم "يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا"، وغايتهم من هذه الهجرة طلب الآخرة والجنة ، ونصرة دين الله بأموالهم وأنفسهم ، وفي الجملة حذف الجار والمجرور "من الله" ، بعد رضوانًا لتقدم ما يدل عليه ، و"أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" فقد ثبت صدق إيمانهم في القول والفعل[1] ، وجاءت الخاتمة "أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " تمكينًا لمنطوق الآية، وتعقيبًا منسجمًا مع صدق أفعالهم وأقوالهم في سبيل نصرة دين الله ، وجاء الحكم عليهم بالصدق غير مشروط ؛ لأن الصدق تحقق في أقوالهم وأفعالهم، وتأكد بضمر الفصل هم.

أمّا الأنصار فقد "تَبَوَّؤُوا الدَّارَ" ، و"تَبَوَّؤُوا" ، نزلوا ، ومنه المَبَاءة والمنزل[2] ، نزلوا دار الهجرة قبل المهاجرين ، ولزموا الإيمان لزوم الدار ، وأحبوا المهاجرين بإخلاص ، وما وجدوا في أنفسهم حاجة مما أُعطي المهاجرون من الفيء أو حسدًا عليهم ، يقدمون المهاجرين على أنفسهم حتى لو كانوا في فاقة وحاجة ، فقدموا ما عندهم لإخوانهم المهاجرين ، فَوَقَوْا أنفسهم من الشُّح ، وكان جزاؤهم الفوز بما أرادوا رضا الله[3] ، وجاءت خاتمة الآية "فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" منسجمة مع صفاتهم التي تعبر عن مشاعر نفسية إيمانية وطّنوا أنفسهم عليها ، ومنها وقاية أنفسهم من الشح ، ويبدو أن الشح ملتصق بالنفس بدليل إضافته إلى النفس " شح نفسه" ؛ فجاء الحكم بالفلاح مشروطًا بوقاية أنفسهم من الشُح الذي ربما يصعب على النفس مغالبته ، فهذه صفة من آمن بالله ، وأخلص الإيمان من المهاجرين والأنصار، فكان لهم الفضل في إقامة دين الله في الأرض، فهجر المهاجرون ديارهم وأموالهم ، وكان الأنصار عونًا لهم ، فقاسموهم المال والديار في سبيل نصرة دين الله.

---

(١) انظرالمحرر الوجيز ٥: ٢٨٧ ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٢٢٥.

(٢) أساس البلاغة، مادة بوأ.

(٣) انظر المحرر الوجيز ٥: ٢٨٨ ، ومدارك التنزيل وحقائق التأوي١٢٢٥.

٤- **الدعوة إلى نصرة دين الله ، يقول تعالى:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف/ ١٤).

يخاطب الله عباده المؤمنين بأسلوب النداء تأكيداً وتنبيهاً ، لما في ياء النداء من التأكيد والتنبيه والتدرج من الإبهام إلى التوضيح (١) ، ويأمرالله عباده بقوله" كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ" أي كونوا عونًا لنصرة دين الله مثل ما كان الحواريون أنصارعيسىعليه السلام، " وسُمّوا حواريين ؛ لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس بإفادتهم الدين، وقيل كانوا صيادين لاصطيادهم نفوس الناس من الحيرة وقَوْدِهم إلى الحق"(٢). ويرى الزجاج أن الحواريين خلصاء الأنبياء وصفوتهم، وسُمّوا بذلك لبياض ثيابهم (٣)،

وبهذا المعنى نصروا الله بقَود الناس إلى كلمة الحق، وإخلاصهم في نصرة دين الله ، وفي قوله "كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ" الكاف للتشبيه، والتشبيه محمول على المعنى، أي كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسىعليه السلام ، فآمنت طائفة برسالة عيسى وكفرت أخرى فأيد الله من نصره ، وكانواهم الغالبين(٤) ، فجاء التأييد لمن أيد دين الله ونصره مباشرة دون تراخٍ فمن ينصر الله ينصره ، ويرى الزمخشري أن الإضافة في "أنصار الله" تختلف عن الإضافة في "أنصاري" فالإضافة في الأولى إلى لفظ الجلالة أي نحن أنصار الله ، وفي الثانية أنصار يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله(٥) وفي ذلك يقول السامرائي: "إن الذي قال للحواريين من أنصاري هو عيسى ، أمّا القائل

(١) الإتقان في علوم القرآن : ٥٨٤

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة حور.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٦٤.

(٤) انظر الكشاف ٦: ١٠٧-١٠٩ ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل: ١٢٣٨.

(٥) الكشاف ٦: ١٠٨.

"يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله " هو الله ، وهذا يدل على عظم التبليغ للمؤمنين"(1)، فهذه دعوة لكل مؤمن في كل زمان ومكان لنصرة دين الله ، وإعلاء كلمة الحق ، كلمة التوحيد.

٥- أحكام صلاة الجمعة :

ومما جاء في أداء صلاة الجمعة ما يلي:

- **السعي لأداء الصلاة بعد النداء للصلاة ، يقول تعالى:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة/ ٩).

مضمون الآية دعوة الله المؤمنين لأداء صلاة الجمعة ، وسُمّي يوم الجمعة بهذا الاسم لاجتماع الناس للصلاة فيه(2)، فهذا المعنى يدل على اجتماع المؤمنين يوم الجمعة، وفي قوله: " إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ "، والنداء الأذان، والسعي المضي إلى الصلاة ، وترك البيع وما يُشغل عن أداء الصلاة أمر وجوب في "اسعوا وذروا"، وخُصّ البيع لتكاثره يوم الجمعة، وانشغال الناس به،" ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ"، أي ذلك السعي إلى الصلاة وترك البيع والشراء خير ثوابًا لكم إن كنتم تعلمون الأصلح لكم(3)، يلاحظ أنه لم يسمّ فاعل نُودي فبني للمجهول، وذلك للعناية بالمفعول والإخبارعنه فيترك الفاعل اختصارًا ويبنى الفعل للمجهول(4)، فالسعي لأداء الصلاة مؤكد بفعل الأمر "اسعوا، وذروا" ، فهما أمران واجبان على الحقيقة .

---

(١) على طريق التفسير البياني١ : ٢٣٢.

(٢) المفردات ت في غريب القرآن مادة جمع.

(٣) انظر مدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٢٤١

(٤) انظر أسرار العربية : ٨٨ .

• **الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة ، يقول تعالى:**

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الجمعة/ ١٠).

بعد الفراغ من أداء الصلاة جاء الأمر" انتشروا" وهذا أمر إباحة للتفرق في الأرض، طلبًا للرزق ، واذكروا الله في تفرقكم كما ذكرتموه في أداء صلاتكم ، لعلكم تفوزون بالأجر والثواب([1])، فمحور الحديث هنا انقضاء الصلاة الذي ترتب عليه الأمر بالانتشار وابتغاء الفضل على وجه الإباحة ؛ فلا يجب على كل إنسان هذا الأمر كوجوب الأمر بالسعي في الآية الأولى .

ويرى الفخرالرازي" أن الذكر في الآية الأولى ذكرلا يجتمع مع التجارة ، إذ المراد منه الخُطبة والصلاة ، وفي الثانية يجتمع لقوله تعالى:﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾(النور/ ٣٧)"([2]) ، ويمكن ترجيح صحة هذا التعليل حيث إن الذكر في الأولى جاء في سياق النداء للصلاة ، والأمرالحقيقي بالسعي في أدائها، وفي الثانية جاء في سياق انقضاء الصلاة ، والأمر على وجه الإباحة في الانتشار، ثُمّ إنه يمكن الجمع بين الذكر والعمل ، أمّا الجمع بين الصلاة والعمل فلا، وإنّ الذكر في الأولى لم يحتج إلى مؤكد للانشغال بأمر الصلاة ، فلا يجب أن يَشغل الإنسان شيء في صلاته بينما في قوله "وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا " جاء الذكر مؤكدًا بالمصدر "كثيرًا" النائب عن فعله ؛ وذلك لانشغال العباد بمعاشهم، والله أعلم.

• **الاستماع لخطبة الجمعة ، يقول تعالى :**

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة/ ١١).

لفهم مدلول هذه الآية يجدر ذكر مناسبتها ، ومما جاء في ذلك ما أخرجه الشيخان عن جابر قال : "كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى

---

(١) انظر مدارك التنزيل وحقائق التنزيل : ١٢٤١.

(٢) التفسير الكبير ٣٠: ١٠.

لم يبقَ إلا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ "[1]، فانفضوا بمعنى خرجوا، وجاء في المفردات: الفضّ كسر الشيء والتفريق بين بعضه وبعضه كفض ختم الكتاب ، وعنه استعير انفض القوم[2] ، فالمعنى إذا خرجوا وتفرقوا وتركوا الرسولﷺ قائمًا يخطب، والأصل أن يستمعوا لخطبة الرسولﷺ ، وفي شبه الجملة "إليها" يعود الضمير على التجارة ، مع تقدم ذكر شيئين اللهو والتجارة ، وتقدير ذلك إذا رأوا تجارة انفضوا إليها، أو لهوًا انفضوا إليه ؛ فحذف أحدهما لدلالة المذكور عليه [3] ، ومما جاء في البرهان لعلوم القرآن " أن الضمير عاد على التجارة ولم يعد على اللهو لأن التجارة أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله من اللهو، بدليل أن المشتغلين فيها أكثر، ولأنها أكثر نفعاً من اللهو ، أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعًا ، فضُرِب بالطبل لقدومها على ما عُرِف من تفسير"[4]، وفي قوله " قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"، أي إن الثواب والأجر خير من تجارة الدنيا ولهوها ، فرزق الله قريب حاضر، إذ أن "عند" تدل على "حضور الشيء ودنوه" [5]، والله خير الرازقين خاتمة تناسب مضمون الآية وما ذكر فيها من تجارة، وأن الرزق من عند الله فلا ينشغل به العبد عن أداء العبادات ، و جاء في تقديم اللهو على التجارة ما يراه ابن عطية " أن التجارة في الآية الأولى قُدِّمت مع الرؤية ؛لأنها أهم، وأُخرت مع التفضيل لتقع النفس على الأبين"[6]، ويرى ابن جزي "أن الانفضاض كان إلى التجارة وإلى اللهو الذي هو دونها، وقُدم اللهو ليبين أن ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة التي هي أعظم

---

(1) أسباب النزول المسمى لُباب التقول في أسباب النزول : ٢٦٥، وروي في صحيح البخاري ٢: ٢٨٢ برقم ٩٣٦، مع اختلاف بعض الألفاظ.

(2) المفردات في غريب القرآن، مادة فضّ.

(3) الكشاف٦: ١٢١ ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل : ١٢٤١، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج٥: ١٧٢.

(4) البرهان في علوم القرآن ٤: ٣٢.

(5) حروف المعاني ١.

(6) المحرر الوجيز ٢: ٣١٠.

منه"[1] ، أما السامرائي فيرى تقدم التجارة في الآية الأولى؛ لأنها سبب الانفضاض وليس اللهو؛ لأن اللهو كان بسببها ، وفي الآية الثانية تقدم اللهو؛ لأنه أعم من التجارة ؛ فليس كل الناس يشتغلون بالتجارة ، ولكن أكثرهم يلهون ، ولأنها مناسبة لقوله" والله خير الرازقين " فهي من أسباب الرزق[2] ، يبدو أن الآراء تجتمع على الأهمية في التقديم والتأخير، وتأثيرها في حياة الناس ، فهذه أسباب قائمة وآثار ملموسة في الحياة ؛ فالتجارة من أسباب الرزق ، وهناك من يشغله الرزق أكثر من اللهو، ومنهم من يشغله اللهو.

٦- التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، يقول تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التغابن ١٤- ١٥).

في الآية خطاب عام للمؤمنين من عداوة الزوجات والأولاد وعدم طاعتهم في معصية الله حيث نزلت فيمن ثبطهم أولادهم وزوجاتهم عن الهجرة أو الجهاد[3]، وفي قوله " إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا" حرف الجر من يفيد التبعيض، فليس كل الأزواج والأولاد أعداء ، ويرى القرطبي "أن من أزواجكم يدخل فيه الذكر والأنثى لدخولهما في كل آية"[4] ، والزوج زوج المرأة ، والمرأة زوج بعلها[5]، فهذا يعني ان المرأة قد تكون عدو عدو زوجها ، والرجل عدو زوجه ، فالحذر من طاعة الأزواج والأولاد في معصية الله ، وفي الآية الثانية وصف للأموال والأولاد بالفتنة ، والفتنة "الاختبار بالنار والابتلاء "[6] ، ففي قوله "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ "،أي أن الأموال والأولاد بلاء واختبار ومحنة يوقعون في الإثم من ارتكاب المحرمات ، ففي موضع الفتنة قدم المال على الأولاد وفي

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ٢: ٤٤٧.

(٢) انظر: لمسات بيانية في نصوص التنزيل ١٧٥.

(٣) انظر: المحرر الوجيز٥: ٣٢٠ ، و التسهيل لعلوم التنزيل٢: ٤٥٣.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١١١.

(٥) مقاييس اللغة، مادة زوج.

(٦) المعجم الوسيط ،مادة فتن .

موضع العداوة قدم الأزواج على الأولاد ، ذلك لأنه قصد من تقديم الأزواج الإخبار أن فيهم أعداء، والعداوة تقع من الزوجات أكثر من الأولاد، فكان أنسب وأقرب للمعنى، وقصد في تقديم الأموال على الأولاد أن الفتنة لا تكاد تفارق الأموال ، والفتنة لا تلزم الأولاد كلزومها الأموال(١) ، وهذا تعليل معقول ؛ فالإنسان دائم السعي للبحث عن المال من أجل الأولاد والأزواج ، فالفتنة لا تكاد تفارقه في السعي للبحث عن المال ، ويوضح ذلك إسقاط حرف الجر من في قوله "إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ" وثبوته في قوله " إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا" ، فهذا يعني أن الفتنة في الكل وليس في الجزء ، بينما العداوة في الجزء وليس في الكل ، وليس كل الأزواج أعداء بينما كل الأموال والأولاد فتنة.

ويلاحظ وصف الأولاد بالأعداء مرة وبالفتنة مرة أخرى ؛ وذلك "لأن وصفهم بالعداوة باعتبار ما يتولد منهم ، وبالفتنة اعتبارًا بما ينال الإنسان من الاختبار بهم" (٢)، فهذا يعني أن المواقف العدائية تتولد من الأولاد، فهم مصدرها حين يكونون سبباً في المعصية وعدم الطاعة، والفتنة هم سببها في ابتلاء واختبارالآباء الذين ينشغل بعضهم عن الطاعات والعبادات سعيًا لمصالح الأولاد.

وفي قوله "فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ " خاتمة تتسق مع ما تقدمها من عفو وصفح ومغفرة ، فالله غفور ورحيم لمن عفى وغفر وصفح من الآباء عن الأولاد ، فلم يقابل العداوة بمثلها ، وفي قوله" وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ " لمن جنّب نفسه وحفظها من فتنة الأموال الأولاد.

٧- وعد الرسول بحفظ القرآن، يقول تعالى :

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى۞ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ (الأعلى٦-٧).

الخطاب للرسولﷺ يعده الله أن يقرئه القرآن في قوله" سَنُقْرِئُكَ" ، والسين حرف يختص بالمضارع يُخلصه للاستقبال والاستمرار(٣).

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣: ٢٦١ ، الإتقان في علوم القرآن ٤٥٠

(٢) المفردات في غريب القرآن ٤٨١. المعنيان وردا في مادة فتن.

(٣) مغني اللبيب ١٣٩ ، الجنى الداني في حروف المعاني ٥٩.

فهذا يعني بشارة من الله باستمرار إقراء الرسول القرآن حتى يحفظه فلا ينساه ، فقد كانﷺ يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل القرآن، خوفاً من نسيانه، وفي "لا تنسى" يرى المفسرون أن "لا" للنهي ، ومنهم القرطبي والنسفي وابن عطية بمعنى لا تغفل عن تعاهده بالعمل والحفظ حتى لا تنساه، وأُثبت الألف لمناسبة رؤوس الآي ([1]).

وقد تأتي للنفي لأن لا حرف نفي ينفي فعل المستقبل، ويُنهى بها([2]) ، ويعني هذا أنها للنفي أقرب من النهي فكيف يتعهد الله بحفظ الرسول للقرآن ثمّ ينهى عن النسيان، وأما الفاصلة وإن جاءت للمناسبة فإنها تأتي لتأكيد المعنى، فهذا نفي لنسيانه ، وفي" إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ" فلا ينسى إلا ما ينساه ثم يذكره الله ، يُنسيه ما نسخ منه ،"إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى" ، فهذه الخاتمة تؤكد شمولية علم الله لما يجهر به العباد ويخفون، فيعلم ما يخفي الرسول من مخافة النسيان ، وما يجهربه.

وهذه خاتمة ما تقدم من دلالات انفردت بها سور المسبحات، وعد من الله لرسوله ﷺ بحفظ القرآن ، وفي قوله تعالى:﴿ **إِنَّانَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر/ ٩)، عهد إلهي يؤكد حفظ القرآن الكريم على مرّالعصور، لتبقى آيات الله يتردد صدى ترتيلها في الآفاق، يصدح بالحق المبين.

وإن ما تقدم من دلالات هي أبرز ما انفردت به كل سورة من سور المسبحات عن غيرها، وفي هذه السور الكريمة الكثير من المعاني والدلالات التي لايمكن الإحاطة بها ، فهذه نماذج من الدلالات التي تضمنتها سورالمسبِّحات.

ج- قيم ومبادئ في المسبّحات :

القرآن الكريم كتاب متعبد بتلاوته ، وتلاوته تعني تدبر معانيه ، ومن يتدبره يجد فيه الكثير من القيم والمبادئ التي تقوم عليها دعائم المجتمع المسلم ، فهو دستور إلهي يحتكم إليه المسلمون في تنظيم شؤون حياتهم وتنظيم علاقاتهم في مجتمع سوي لا تشوبه شائبة ،

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٥: ٤٦٩ ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٦، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٣٤٠.

(٢) انظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها ١٢٠.

والمسبّحات سور من سور هذا القرآن العظيم ، فلابُدّ أن نجد فيها من القيم والمبادئ ما يُعد أعمدة راسخة في بناء المجتمع المسلم ، ويمكن أن نجد قيمًا متنوعة ترسّخت في هذه السور، ويمكن حصرها في ثلاث مجموعات: قيم إيمانية ، وقيم اقتصادية ، وقيم أخلاقية اجتماعية.

١- القيم والمبادئ الإيمانية :

ترسّخ في المسبحات من القيم الإيمانية ما يأتي:

- **الإيمان بوحدانية الله وتفرده بالألوهية والعبودية :**

مبدأ وحدانية الله أصل هذه المبادئ الإيمانية وأولها ؛ لأن كل قيمة إسلامية مبعثها مبدأ الإيمان بالله، والاعتقاد الذي لا يقبل الشك بوحدانيته عزّ وجلّ ، فمنذ الخليقة والإنسان يبحث عن قوة عظمى يلجأ إليها ، تطمئن إليها نفسه ، فيعتقد أنها فيما خلق الله من ظواهر الطبيعة فعبدها كما عبد غيرها من مخلوقات الله ، وبقي الإنسان يبحث عن هذه القوة إلى أن بعث الله الرسل ، وأنزل عليهم الكتب السماوية، وجاء الإسلام " بالقرآن الذي حرر وجدان المسلم من سلطان الخرافة والوهم ، وفك أسره من عبودية المخلوقات والأهواء والشهوات ، حتى يكون عبدًا خالصًا لله ، يتجرد للإله الخالق المعبود الذي له الكمال المطلق ، إنه خالق واحد وإله واحد "(١) ، وقد تجلت هذه الوحدانية والتفرد بالألوهية في سور المسبّحات، فيأتي النهي عن الشرك بالله ، ﴿**لا تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً**﴾(الإسراء/ ٢٢) ، ثمّ يأمر بعبادته ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ**﴾ (الإسراء/ ٢٣)، وفي خاتمة سورة الإسراء تأكيد على وحدانية الله وتفرده بالألوهية ﴿ **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ (الإسراء/ ١١١).

---

(١) مباحث في علوم القرآن ٢٧٦.

وفي قوله تعالى:﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾(الحديد/ ٣) إقرار لحقيقة كبرى ، حقيقة وجود الله منذ القدم وإلى الأزل ، فلم يسبق وجوده شيء ، ووجوده باقٍ إلى الأزل ، فلا شيء قبله ، ولا شيء بعده.

وتأتي كلمة التوحيد الكبرى واضحة مدوية في قوله تعالى:﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر/ ٢٢) "فتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه"(١) ، ثُمّ تتكرر هذه الكلمة في الآية التي تليها مُتْبعة بعدد من أسماء الله وصفاته لتؤكد توحيد الله الذي لا يُعبد سواه ، ﴿ **هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (الحشر/ ٢٣) ، وتأكدت عقيدة الوحدانية مرة أخرى في قوله تعالى:﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التغابن/ ١٣) فمن تغلغل الاعتقاد بوحدانية الله في جنبات نفسه ، فلا يتوكل إلا على الله المشهود له بالوحدانية.

- **التسبيح والتحميد:**

من القيم الإيمانية السلوكية التسبيح، الذي استهلت به سور المسبّحات كاستهلال سورة الإسراء بالمصدر "سبحان" ، والفعل الماضي "سبَّح" في سور الحديد والحشر والصف ، والفعل المضارع "يُسَبِّح" في سورة الجمعة والتغابن ، وفعل الأمر "سَبِّحْ" في سورة الأعلى ، فتنوع الصيغ يدل على أهمية التسبيح المطلق في كل وقت في الماضي الذي يدل على تحقق التسبيح ، وفي المضارع الذي يدل على استمرار التسبيح ، والأمر في ما يستقبل من الزمان ، فبعد أن أخبر الله عن تسبيح الكون له-عزّ وجلّ- في قوله تعالى:﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ العزيز الحكيم**﴾(الحديد/ ١)، أمر به في سورة الأعلى ، فيقول تعالى:﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾(الأعلى/ ١) ، وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال :" من قال سبحان الله وبحمده في يوم مئة مرة حطت عنه خطاياه ، وإن كانت

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٥٣٢.

مثل زيد البحر"[1]، فالتسبيح واضح هنا بقول سبحان الله ، وحطّ الخطايا من ثمرة التسبيح ، فهذا التسبيح سلوك يميز المجتمع المسلم ، الذي يردد أفراده سبحان الله في أذكارهم وصلاتهم ، ويلاحظ ارتباط التسبيح بالتحميد كما جاء في الحديث ، وفي قوله تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء/ ٤٤) ، فمن يؤمن بوحدانية الله يلهج لسانه بذكر الله تسبيحًا وتحميدًا.

ومن ثمرة ذكر الله بالتسبيح والتحميد الطمأنينة التي لا يستشعر لذّتها إلا من آمن بالله، وذكره، وسبّحه فيقول تعالى:﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد/ ٢٨).

- **الإيمان باليوم الآخر:**

من القيم الإيمانية التي ترسّخت في المسبحات الإيمان باليوم الآخر، وهو اليوم الذي يُبعَث فيه الناس على صعيد واحد للحساب والجزاء ، والإيمان بهذا اليوم عقيدة راسخة في الإسلام ، وقد جاء في المسبّحات الكثير من الآيات التي ترد على منكري هذا اليوم من الكفار المكذبين ، يقول تعالى:

﴿وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۞أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (الإسراء/ ٤٩-٥١) ، الرد في هذه الآ ية على إنكارهم البعث "جاء في تصور بسيط واضح مريح ، فالذي أنشأهم إنشاءً قادرعلى أن يردهم أحياء ، ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون"[2] ، ويقول تعالى في موضع آخر:﴿ **زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ (التغابن/ ٧) ، وهنا أيضًا ردٌّ يؤكد بعث من ادعوا بأنهم لن يبعثوا ، فبَعْثُهم أمر يسير على الله سبحانه وتعالى وهوالذي أنشأهم أول مرة .

---

(١) صحيح مسلم ٦٨٩ برقم ٢٦٩١

(٢) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٣٣.

ويقول تعالى:﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ۞ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد/١٣-١٥).

تصور هذه الآيات مشهدًا من مشاهد يوم الحساب الذي أنكره الكفار، يوم يتحقق المنكرون من البعث والحساب، ويخلدون جزاء كفرهم في النار التي هي مأواهم ومولاهم ، فلا فدية تخلصهم منها، ولايشفع لهم أنهم كانوا في الدنيا مع المؤمنين ؛ لأنهم منافقون يظهرون غيرما يبطنون.

وقد سُمِّيت واحدة من سور المسبحات بأحد أسماء يوم القيامة وهو يوم التغابن، يوم الجمع ،إذ يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التغابن/٩) ، فهذا يوم جمع الخلائق للحساب والجزاء الذي أنكره الكفار.

ويقول تعالى:﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ (الاعلى /١١-١٢) ، فالنارالكبرى نار يوم القيامة ، ففي هذه الآية إقرار بيوم القيامة الذي آمن به المؤمنون، وأنكره الكافرون.

ومن ثمرة الإيمان باليوم الآخر زيادة الإيمان والإقبال على فعل الطاعات ، حتى يلقى الإنسان ربه مرضيًّا عنه ، مؤدِّياً ما عليه من فرائض وواجبات دنيوية وأخروية.

●الإيمان بالرسل والأنبياء عليهم السلام:

جاء ذكر الرسل عليهم السلام في عدة مواضع في سورالمسبحات ، مثل قوله تعالى:﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ۞ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء/ ٢-٣) ، ففي هاتين الآيتين تذكير برسولين كريمين موسى ونوح عليهما السلام، وفي موضع آخر يُذكر نبي الله داود عليه السلام في

قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ (الإسراء/ ٥٥) ، و قد تضمنت آية من سورة الحديد ذكرالأنبياء جميعًا ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد/ ٢٥) ، "فنصرة الله ورسله هي نصرلمنهجه ودعوته"(١) ، وعلى هذا فنصرة الله ورسله لن تكون إلا بالإيمان بالرسل واتباع ماجاؤوا به عن ربّهم ، وفي سورة الصف يقول تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾(الصف/ ٦) ، وهنا يُذكر عيسى عليه السلام مبشرًا بخاتم الأنبياء ﷺ، مما يدل على وحدة رسالتهم ، ويؤكد ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾(الأعلى/ ١٨-١٩) ، فمرسل الرسل واحد، والرسالة واحدة ، فهذا يبعث على الإيمان بالرسل عليهم السلام ، وهي عقيدة راسخة في نفوس المسلمين لا تقبل الشك ، فمن آمن بالله يؤمن برسله عليهم السلام.

الإيمان بالقضاء والقدر :

ورد في سور المسبحات ما يقتضي التسليم بالقضاء والقدر، وذلك في قوله تعالى:﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد/ ٢٢-٢٣) ، واضح من الآية أن مايصيب الإنسان من مصيبة سواء في الأرض، أو في نفسه مقدّر عليه في علم الله الأزلي، فلا تقديم أو تاخير في تقدير الله ، فلا الحزن يدفعه ولا الفرح يجلبه(٢) ، فالأمر بيد الله، فلا يجزع الإنسان لمصيبة أصابته ، ولا يفرح لنعيم ناله، فيرضى بقضاء الله وقدره ، ويشبه هذا القول ماجاء في سورة

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٤٩٥.

(٢) انظر محاسن التأويل ١٦: ٥٦٩٢.

التغابن:﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن/ ١١) ، فما يصيب الإنسان من مصيبة إلا بقدر من الله ومشيئته.

• **الإيمان بالغيبيات:**

من الغيبيات التي يُسلِّم بها المسلم كما أخبر عنها الله- عز وجل- الروح ، وهي غيب من غيب الله لايدركه سواه ، وسر من أسرار القُدُسية أودعه هذا المخلوق البشري وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها (١) ، فيقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء/ ٨٥) ، ومن غيب الله الجنة والنار ، وهما من الغيبيات المسلَّم بهما ، وجمع بين ذكر الجنة والنار في المسبحات في آية واحدة ، يقول تعالى:﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (الحشر/ ٢٠) ، ويقول تعالى:﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(التغابن/ ٩-١٠) ، فالجنة والنار من موجودات الله المُخبَر عنها في كتابه الكريم ، فالإيمان بهما عقيدة مُسلّم بها ، ومن غيب الله المسلَّم به الإيمان بالملائكة ، فيقول تعالى:﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء/ ٩٥) ، فهم ليسوا من أهل الأرض لنراهم ، بل هم من أهل السماء الذين نؤمن بوجودهم غيبًا.

• **الجهاد والشهادة في سبيل الله :**

من القيم التي تميز المجتمع المسلم الجهاد والشهادة في سبيل الله ، وقد ورد في المسبّحات ضمن قوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد/ ٢٥) ، أُنزل الحديد رادعًا لمن يأبى الحق ، فمنه

(١) في ظلال القرآن: ٤: ٢٢٤٩.

يصنع مايحمل من أدوات القتال مثل السيوف والحراب لنصرة دين الله [1] ، ففي الآية إشارة إلى الجهاد ، وفي قوله تعالى:﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ (الصف/ ٤) ، ترغيب في القتال في سبيل الله ،ويقول تعالى:﴿ **تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الصف/ ١١) ، فقد ذُكر نوعان من الجهاد ، جهاد ببذل المال، وجهاد ببذل النفس ، فالإشارة للجهاد ، وهو من ثمرة الإيمان بالله ، ومن ثمرة الجهاد إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة، فالشهداء لهم مقامهم عند ربهم ، يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾(الحديد/ ١٩) ، يقول سيد قطب معلقًا على سياق هذه الآية :" فالدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد ، جهاد لتأمين العقيدة ، وتأمين الدعوة ، وحماية أهله من الفتنة
وشريعته من الفساد"[2]، وإلى ميادين الجهاد والشهادة يتسابق المؤمنون لإقامة دين الله في الأرض.

٢- القيم والمبادئ الاقتصادية :

ترسّخ في المسبحات من القيم الاقتصادية ما يأتي:

الاعتدال في الإنفاق:

الاعتدال أو الوسطية من المبادئ التي دعا إليها الإسلام ، ووصفت الأمة الإسلامية بالوسطية في قوله تعالى:﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾(البقرة / ١٤٣) ، فمن المواضع التي تدعو إلى الاعتدال في الإنفاق قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ (الإسراء/ ٢٩) ، تضمنت هذه الآية "حكمة في قالب بياني ، فالحكمة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٤٥٥.

(٢) في ظلال القرآن ٦: ٣٤٩٠

العطاء المحمود ، وهو الوسط الواقع بين طرفي الإفراط والتفريط "[1] ، فالاعتدال في الإنفاق أمر مطلوب ، فلا يكون المسلم بخيلاً ، ولا مسرفًا ، فيقعد ملومًا على بخله وإسرافه ، فالإسراف يؤدي إلى تبديد الأموال في غير موضعها ، وبالبخل يحصل الحرمان من الانتفاع بالمال ، فخير الأمور أوسطها مبدأ في المنهج الإسلامي حتى في العبادة ، يقول تعالى:﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (الإسراء/ ١١٠) ، فهذه دعوة للتوسط بين الجهر والخفوت في الصلاة .

التكافل الاقتصادي:

يحرص الإسلام على تحقيق التكافل الاقتصادي في المجتمع الإسلامي، لبناء مجتمع متعاون متماسك يحفظ كرامة أفراده ، ففي قوله تعالى:﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾(الإسراء/ ٢٦) ، أمر بإعطاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل حقهم بالإنفاق عليهم ، ويقول سيد قطب:" والقرآن يجعل لذي القربى والمسكين وابن السبيل حقًّا في الأعناق يوفى بالإنفاق"[2] ، فالإنفاق على المحتاجين حق لهم، فيقول تعالى:﴿ **وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾(الذاريات/ ١٩)، ومن شان هذا الإنفاق أن يحقق تكافلاً اقتصاديًا في المجتمع المسلم ، ويحفظ كرامة المحتاجين من أبنائه.

وقد أمر الإسلام بالإنفاق وحثَّ عليه في غير موضع في سور المسبّحات ، مثل قوله تعالى: ﴿**آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾(الحديد/ ٧) في هذه الآية "الإنفاق المأمور به هو الإنفاق على الفقير"[3]، فهذا الإنفاق يُعين الفقير على سد احتياجاته ويكفل له كرامته ، ويحقق تكافلاً اقتصاديًا بين أفراد المجتمع المسلم ، ثُمّ يتبع ذلك توبيخ من لا ينفقون في سبيل الله بقوله تعالى:﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي**

---

(١) التحرير والتنوير ١٥: ٨٤.

(٢) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٢٢.

(٣) التحرير والتنوير ٢٧: ٢٦٨.

مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد/ ١٠) ، وفي قوله تعالى:﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد/ ١١) ترغيب في الإنفاق، وتحريض عليه.

ويتكرر الأمر بالإنفاق والترغيب فيه في سورة التغابن فيقول تعالى:﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ (التغابن/ ١٦-١٧) ، فهذا التكرار يؤكد أهمية الإنفاق في تحقيق التضامن والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم.

وفي قوله تعالى:﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/ ٧) ، تقسيم للفيء على الفئات المذكورة من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل؛ حتى لايكون الفيء دُولة بين الأغنياء أي "لئلا يتداوله الأغنياء ولا ينال أهل الحاجة نصيب منه"(١) ، فهذه إشارة إلى توزيع المال بين المسلمين بشكل يحفظ كرامة أبنائه المحتاجين.

وبالصدقة أيضاً يتحقق التكافل الاقتصادي والاجتماعي ، يقول- تعالى- مرغبًا في الصدقة :﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾(الحديد/ ١٨) ، فما يعطى للفقراء والمحتاجين من أموال الصدقة يسد حاجاتهم ، ويضمن لهم حياة كريمة.

وبالزكاة أيضًا يتحقق هذا التكافل الاقتصادي ، يقول تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (الأعلى/ ١٤) ، أي "طهّر نفسه بالأعمال الصالحة ، ومنها زكاة الأموال"(٢) التي تدفع

---

(١) التحرير والتنوير٢٨: ٨٤.

(٢) المصدر نفسه ٣٠: ٢٨٨.

للمحتاجين من أفراد المجتمع المسلم الذي يتعاون أفراده لتحقيق التكافل الاقتصادي؛ بما ذُكر من إنفاق في سبيل الله وصدقة وزكاة أموال.

٣- القيم الأخلاقية الاجتماعية:

كثيرة هي آيات القرآن الكريم التي تحث على القيم الأخلاقية والاجتماعية ، التي تكفل مجتمعًا إسلاميًا يسود بين أفراده حُسن الخُلق ، أُسوتهم الرسولﷺ الموصوف من ربه بالخُلق العظيم﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم/ ٤)، فحُسن الخلق من شأنه أن يرسي قيمًا اجتماعية توطد الصلة بين أفراده. ومن أبرز هذه القيم والمبادئ ما يأتي:

- **مبدأ العمل والجزاء:**

كل إنسان يُجزى بعمله ، الحسن بالحسنة ، والسيئ بالسيئة ، يقول تعالى:﴿ **إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا**﴾(الإسراء/ ٧) ، الخطاب في سياق الآية لبني إسرائيل ، إلا أن مبدأ الجزاء بالعمل " قاعدة لا تتغير في الدنيا والآخرة ، التي تجعل عمل الإنسان كله له ، بكل ثماره ، ونتائجه وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل ، وتجعل الإنسان مسؤولاً عن نفسه ، إن شاء أحسن إليها ، وإن شاء أساء"[١] ، فهذا مبدأ خالد في الجزاء ، يجزى كل إنسان بعمله.

- **العـدالة:**

من مظاهر العدالة أن كل فرد مسؤول عن عمله ملزم به ، يقول تعالى:﴿ **وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا**﴾ (الإسراء/ ١٣) ، يوم القيامة أعماله مُحصاة في كتاب يقرؤه بنفسه ، يقول تعالى:﴿ **اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ (الإسراء/ ١٤) ، كل نفس آثمة تحمل إثمها ، ولا يعذب أمة من الأمم قبل أن يبعث رسولاً يرشدهم ، يقول تعالى:﴿ **مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ**

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٢١٤.

رَسُولاً﴾(الإسراء/ ١٥) ، فهذه مظاهر العدالة الإلهية التي يجب أن ينظر فيها المرء بتمعن فيدرك معنى العدالة ، ويتخذها مبدأً في معاملاته مع الآخرين.

ومن العدل أن يُقتل قاتل النفس بغير حق ، وألّا يتجاوز ولي القاتل حده في القتل ، فيقتل غير القاتل، يقول تعالى:﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء/ ٣٣) ، فالعدالة مبدأ خلقي اجتماعي ، يضمن حياة حرة كريمة آمنة ، لا اعتداء فيها على حياة الآخرين ، فيشيع الأمن بين أفراد المجتمع.

- **برالوالدين والإحسان لهما :**

من القيم السلوكية الخُلقية التي تميز المجتمع المسلم برالوالدين والإحسان لهما ، فقد رُبط بين عبادة الله وبرالوالدين ، في قوله تعالى:﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا**﴾ (الإسراء/ ٢٣-٢٤)، ومن صورالبرِّ بالوالدين مخاطبتهما بقول كريم يجيش بالاحترام ، والرحمة بهما ، والتواضع لهما ، فهذه صور من القيم الأخلاقية التي يتعامل بها الابن مع والديه في مجتمع تسوده قيم خُلقية رفيعة ، تضمن لكبارالسن الاحترام والتقدير والملاذ الآمن في بيت تجمع أفراده أواصر المحبة والمودة.

- **الالتزام بنهي الله :**

يجب أن يكون المسلم حريصًا على الالتزام بترك ما نُهي عنه ، فيترك المعاصي والفواحش التي نهى الله عنها ؛ لبناء مجتمع مميز بسوية أفراده ، يقول تعالى:﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا ۞ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً۞ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾ (الإسراء/ ٣١-٣٣) ففي هذه الآيات نهي عن القتل ، قتل الأولاد ، وتوجيه إلى التوكل على الله الذي يرزق الأولاد والآباء ، فلا يخشى الآباء الفقر، ونهي عن قتل النفس بغير حق ، والنهي عن

فاحشة الزنى التي لا تقل خطورة عن جريمة القتل ،" فهي قتل للجماعة التي يفشو فيها ، فتضيع الأنساب، وتختلط الدماء ، وتذهب الثقة في العرض والولد ، وتتحلل الجماعة ، وتنفك روابطها ، فتنتهي إلى ما يشبه الموت في الجماعات "(1) ، فمن شأن التزام المسلم بنهي الله عن القتل بغير حق ، وعن ارتكاب الفاحشة أن يبني مجتمعًا خاليًا من الجريمة تسود المحبة بين أفراده.

- **تقـوى الله:**

ومن يلتزم بترك ما نهى الله عنه يمتثل أوامره ، وبذلك يلزم التقوى التي أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾(الحشر/٧) وفي قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحديد/٢٨) ، فمن جعل تقوى الله رقيبًا عليه في كل أمر من أموره تستقيم أخلاقه ، فيتميز المجتمع الإسلامي بعلاقات اجتماعية متينة من المحبة والمودة التي تعمل على تماسك المجتمع وترابطه.

- **الوفاء بالعهود:**

الوفاء من مكارم الأخلاق التي اتصف بها العرب، وتغنوا بها في أشعارهم ، يقول شاعرهم:

وإمَّا أن يقولوا قَـدْ وفينا بذمتنـا فعادتنـا الوفـاء (2)

وفي المسبِّحات أمر الله بالوفاء بالعهود في قوله تعالى:﴿**وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ۞ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (الإسراء/ ٣٤-٣٥) ، فرعاية اليتيم عهد يجب الوفاء به ؛ فقد أُتْبِع النهي عن القرب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن

---

(1) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٢٤

(2) شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى ١٧.

بقوله تعالى:" وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً"، وكذلك الوفاء بإتمام الوزن والكيل في المعاملات التجارية ، مما يعني البعد عن الغش في البيع وسائر المعاملات، فيعيش أفراد المجتمع حياة حرة كريمة في المجتمعات الإسلامية بحُسن خُلق أفرادها، لالتزامهم بالوفاء بعهودهم.

●التثبت من الأخبار قبل نقلها:

الإسلام دين الوضوح والاستقامة فلا اتباع لشبهة أو ظن أو وهم فيما يُعتقد ([1]) ، فيقول تعالى:﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾(الإسراء/٣٦) ، فإن اتباع ما لايعلم ولا تثبُت صحته منهي عنه ؛ إذ يترتب عليه الطعن في الأنساب ، والكذب ، وإيقاع الأضرار في المجتمع جرّاء الاستناد إلى الوهم والظن([2]) ، فالمسلم تترفع به قيمه الأخلاقية عن الخوض في أمور قائمة على الظن والشُبهة.

● التواضع وعدم الكبرياء:

ينهى الله عن التكبر في قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً**﴾ (الإسراء/٣٧) ، فالمرح مشية التكبر والخيلاء ، وفي هذا النهي دعو ة للتواضع ،"فذلك التطامن والتواضع الذي يدعوإليه القرآن أدب مع الله وأدب مع الناس ، أدب نفسي واجتماعي"([3]) ، فالتواضع خُلق كريم يُشيع أواصر المحبة والأُلفة بين أفراد المجتمع المسلم.

●الحياء من الله:

من يعرف أن الأمور مرجعها إلى الله ، وأنه يعلم مافي الصدور، أي" مافي خواطر الناس من نوايا"([4]) ، وذلك في قوله تعالى:﴿ **وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ (الحديد/٦) ،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤: ٢٢٢٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ١٥: ١٠٠- ١٠١.

(٣) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٢٨.

(٤) التحرير والتنوير ٢٧: ١٦٧.

يستشعر الحياء من الله يملأ جنبات نفسه ؛ فهو يراقبه في كل أمر من أموره في حركاته وسكناته ، ومن يشعر بهذه المراقبة وهذا الحياء، يغدو خُلقًا من أخلاقه في تعامله مع أفراد المجتمع.

•الزهد في الدنيا:

يقول تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ (الحديد/ ٢٠)، في الآية صورة محسوسة لسرعة زوال الدنيا وفنائها ، صورة زرع نما وهاج ، وسرعان ما اصفر ويبس وأصبح حطامًا، فينظر إليها نظرة الزاهد الراغب عن نعيمها الزائل ، وينظر إلى الآخرة نظرة الراغب في دوامها وبقائها ، يقول الله تعالى في سورة من سورالمسبحات :﴿ **وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾ (الأعلى/١٧) فهذا الزهد من شأنه أن يجعل الإنسان مُقبلاًعلى ربّه عبادة وطاعتة ، محسنًا معاملاته مع أفراد مجتمعه، فكل عمل يقبل عليه يرجو فيه رضى الله ، وثوابًا دائمًا ، لا جزاءً زائلاً.

• الإيثـار:

أحبّ الأنصار إخوانهم المهاجرين وآثروهم على أنفسهم ، أي قدموا حاجة إخوانهم المهاجرين للمال على حاجتهم وهم في غاية الحاجة إليه(١)، وذلك في قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (الحشر/٩) ، فالإيثار على النفس خُلق رفيع لايرقى إليه إلا من كان على درجة عالية من الإيمان ، ومن ثمار هذه القيمة الأخلاقية العمل على توطيد أواصر المحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي.

---

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٤٧٤.

• **الصـدق:**

ثبت صدق المهاجرين في خروجهم من ديارهم ، والتخلي عن أموالهم في سبيل رضا الله عنهم، وذلك في قوله تعالى:﴿ **لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾(الحشر/٨) ، فصِدْق المسلم يتمثل في عمله الذي يوافق قوله ، "فكان المهاجرون صادقين مع الله في أنهم اختاروه ، وصادقين مع رسولهم في أنهم اتبعوه ، وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض"(١) ، هذا هو صدق المؤمن مع ربه ، ومع رسوله ، ومع الحق ، فالصدق قيمة أخلاقية مشرقة في مجتمع إسلامي يتميز أفراده بالصدق والإخلاص في نصرة دينهم.

• **العفو والصفح:**

ترك المعاقبة على الذنب ، والصفح عن المذنب ، وستر الذنب إذا كان الـذنب في حـق المرء أمورمرغوب فيها ؛ لأن الله غفور رحيم (٢)، وهذا في قوله تعالى:﴿ **يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِـرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(التغابن/ ١٤) ، فالعفو عن الزوجات والأولاد الذين يثبطـون عـن فعل الخير أمر مرغوب ؛ لأن من شأن العفو والصفح أن يُشيع أواصر المودة والمحبة بـين أفراد الأسرة ، فما بالنا بمجتمع تميز أفراده بالصفح والعفـو عمـن يخطئـون في حقهـم ، فمن شأن الصفح والعفو أن يُحيل العداوة إلى علاقات حميمة من المـوالاة والمـودة بـين أفراد المجتمع المسلم ، فتخلو القلوب من العداوة والحقد حين تلهج الألسنة بالـدعاء إلى الله في قوله تعالى:﴿ **رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِـي قُلُوبِنَـا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحشر/ ١٠) ، فتغدو القلوب صافية ،لا حقـد ولا عداوة بينها ؛ لأنها مُلئت بالصفح والمغفرة والعفو.

---

(١) في ظلال القرآن ٦: ٣٥٢٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير ٢٨: ٢٨٥.

وبعد عرض هذه النماذج الخالدة من القيم الإسلامية يمكن ملاحظة ما يلي :

- شيوع القيم الإيمانية في سور المسبّحات ، ذلك أن الإيمان والتوحيد مُبتدأ كل القيم وأصلها ، فالإيمان بالله وتوحيده من أول الموضوعات التي اهتم بها القرآن الكريم ودعا إليها، فمن يؤمن بالله يجد حلاوة الإيمان في امتثال أمر الله ونهيه ، فيكون عبدًا موحِّدًا لله ملتزمًا بشرعه.

- شاعت القيم الإيمانية في سورة الإسراء والأعلى المكيتين على الخصوص، حيث إن الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ، وإثبات البعث والجزاء من أبرز موضوعات القرآن المكي ، فجاءت القيم منسجمة مع هذه الموضوعات.

- القيم الخُلقية الاجتماعية كانت أكثر شيوعًا في سورالمسبحات الأخرى : الحديد ، والحشر ، والصف ، والجمعة ، والتغابن ؛ ذلك أنها سور مدنية، من موضوعاتها تنظيم الصلات والعلاقات بين أفراد المجتمع ، ولم تخل من القيم الإيمانية التي تتميز بها السور المكية ، مما يعني أن القيم لا يمكن أن تختص بها سورة دون أخرى ، فيمكن أن تجتمع قيم متنوعة في سورة واحدة.

- لم تخلُ سورة الإسراء المكية من قيم خُلقية تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع المكي المسلم ، ومرد ذلك "يظهر في أنها نزلت في زمن كثرت فيه جماعة المسلمين بمكة وأخذ التشريع المتعلق بمعاملات جماعاتهم يتطرق إلى نفوسهم، فذُكِرت فيها أحكام متتالية في الآيات "٢٣- ٣٨" من قوله تعالى:﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ إلى قوله: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[١].

- إن القيم الإسلامية كفيلة بإنشاء مجتمع مثالي في معتقداته وأخلاقه ومعاملاته الاجتماعية ، فيكون مثالاً في القيم والتحضّر الأخلاقي ، فيحرز تقدُّمًا مرموقًا في شتى مجالات الحضارة المادية.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥: ٨.

• إن قيم الإسلام معجزة خالدة خلود القرآن وإعجازه ، فإعجاز قيمه ومبادئه لا تقل عن إعجاز نظمه وفصاحته وبلاغته.

• بهذه المبادئ والقيم الأخلاقية الرفيعة انتشر الإسلام ، وساد المسلمون العالم بحُسن أخلاقهم، والتزامهم شرع الله في معاملاتهم.

د- الفاصلة :

١- مفهوم الفاصلة لغة واصطلاحًا :

الفاصلة لغة: الفصل بون مابين شيئين ، والحاجز بين الشيئين، والقضاء بين الحق والباطل ، والفاصلة خرزة تفصل بين الخرزتين في النِّظام (١).

الفاصلة اصطلاحًا :"أواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر، واحدتها فاصلة(٢) "الفواصل حروف مشاكلة في المقاطع توجب حُسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ؛ وذلك لأن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة"(٣) وهي"كلمة آخر الآية كقافية الشعر وقرينة السجع ، وقال الداني: كلمة آخر الجملة"(٤) ، ومن الفواصل ما هو آية كاملة ، وما هو بعض آية (٥) ، فالفاصلة كلمة آخر الآية أو بعض آية ، غرضها إفهام المعنى فهي

---

(١)انظر:لسان العرب مادة فصل .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٩٧- ٩٨ ، وانظر إعجاز القرآن : ٤٠٩- ٤١٠ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ١: ٣٥ ، الإتقان في علوم القرآن ٦٠٩ ، الفاصلة في القرآن ٢٦ .والداني عثمان بن سعيد من حفاظ الحديث وأئمة علم القرآن وتفسيره ، من أهل دانية بالأندلس ،انظر الأعلام ٤: ٢٠٦

(٥) الفاصلة في القرآن ١٥٥.

تابعة للمعنى، وأمّا السجع فالمعنى تابع له، والسجع "تواطؤ الفاصلتين في النثرعلى حرف واحد"([1]).

فهذا يعني أن هناك توافقاً بين السجع والفاصلة من الناحية الفنية ؛ فهناك تشاكل وتواطؤ أي تشابه في الحروف في الفاصلتين ، والغرض من الفاصلة القرآنية إفهام المعنى ، أمّا السجع فقد يأتي بعضه لخدمة اللفظ دون المعنى ، ولا يقابل سجع الأدباء بالفاصلة القرآنية من حيث الفصاحة والبلاغة.

٢- مقارنة بين فواصل المسبحات :

يمكن النظر بإمعان في الجدول الإحصائي الآتي الذي اعتُمد في وضعه على حرف الروي وهو"الحرف الأخير في الفاصلة "([2]) للمقارنة بين الفواصل:

السورة	الفاصلة وفق حرف الروي	عدد الآيات	رقم الآيات	مثال
الإسراء	الراء	٥١	١، ٣،٤ ، ٦ ،٧، ٨ ،٩، ١٣، ١٦ ١٧، ١٨، ١٩،٢٠ ٢٤،٢٥، ٢٦، ٢٧ ،٢٨، ٢٩ ، ٣٠،٣١ ،٣٣، ٣٩ ٤١، ٤٣ ، ٤٤، ٤٥ ، ٤٦، ٤٧،٥٥ ٥٧، ٥٨ ، ٦٠، ٦٣، ٦٤ ، ٦٧ ٧٥ ٨٠، ، ٨٢ ، ٨٧، ٨٨ ، ٨٩، ٩١، ٩٦، ٩٧، ٩٩ ، ١٠٠ ١٠١ ١٠٢، ، ١٠٥، ١١١	كبيرا ، تتبيرا بصيرا ، محظورا محسورا ، نفورا خسارا ، غفورا محذورا، موفورا مسطورا، ظهيرا تفجيرا ، كفورا مسحورا، نذيرا
	اللام	٣٧	٢، ٥ ، ١١، ١٢ ، ١٥، ٢١، ٢٢	وكيلا ، عجولا طولا

([1]) الإيضاح في علوم البلاغة : ٢٩٦، المثل السائر١: ٢١٠

([2]) الفاصلة في القرآن الكريم ١٣٩.

			٣٢، ٣٤، ٣٥ ،٣٦، ٣٧، ٤٢، ٤٨ ٥٢ ،٥٤، ٥٦، ٦٢، ٦٥، ٦٨ ،٧٠ ٧١، ٧٢،٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٧، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩، ٩٣، ٩٤، ٩٥ ،١٠٦ ١٠٨، ١١٠.	، سبيلا قليلا ، وكيلا خليلا ، تحويلا رسولا ، تنزيلا لمفعولا ، سبيلا
	الدال	٦	٤٩ ، ٥٠ ، ٧٨ ،٧٩ ، ٩٨ ، ١٠٧	جديدا ، حديدا مشهودا ، سجدا
	الميم	٤	١٠، ٢٣، ٤٠ ، ٦٦	أليما ، كريما
	العين	٤	٦٩ ، ٩٠ ، ١٠٣، ١٠٩	تبيعا ، ينبوعا خشوعا ، جميعا
	الباء	٢	١٤، ٥١	حسيبا ، قريبا
	النون	٢	٥٣، ٦١	مبينا ، طينا
	الفاء	٢	٥٩ ، ١٠٤	تخويفا ، لفيفا
	الهاء	١	٣٨	مكروها
	القاف	١	٨١	زهوقا
	السين	١	٨٣	يؤوسا
الحديد	الراء	١١	٢، ٤، ٥، ٦ ، ٧ ، ١٠، ١٤، ١٥ ٢٠، ٢٢، ٢٣	قدير ، بصير يسير، فخور
	الميم	١٠	١، ٣ ، ٩، ١١ ، ١٢، ١٨ ، ١٩ ٢١ ، ٢٨ ، ٢٩	رحيم ، كريم
	النون	٥	٨ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٢٨	مؤمنين ، تعقلون
	الباء	١	١٣	العذاب

	الدال	١	٢٤	حميد
	الزاي	١	٢٥	عزيز
الحشر	النون	١٤	٥، ٨ ،٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤، ١٦، ١٧ ، ١٨ ،١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣	الصادقون،تعملون العالمين، الفائزون
	الميم	٥	١، ١٠ ، ١٥، ٢٢، ٢٤	رحيم ، حكيم ،أليم
	الراء	٣	٢ ، ٣ ، ٦	الأبصار ، النار
	الباء	٢	٤ ، ٧	العقاب
الصف	النون	١٠	٢، ٣ ، ٥، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩، ١١، ١٣ ، ١٤	الفاسقين ، مبين المؤمنون، تعلمون
	الميم	٣	١ ، ١٠ ، ١٢	حكيم ، أليم،العظيم
	الصاد	١	٤	مرصوص.
الجمعة	النون	٨	٢ ، ٥ ، ٦، ٧، ٨ ، ٩ ، ١٠، ١١	صادقين ، تعلمون
	الميم	٣	١، ٣ ، ٤	الحكيم ، العظيم .
التغابن	الراء	٨	١، ٢، ٣، ٤، ٧، ٨ ، ١٠ ، ١٤	قدير ، بصير
	الميم	٦	٥، ٩ ، ١١، ١٥ ، ١٧ ، ١٨	أليم، عليم ، رحيم
	النون	٣	١٢، ١٣ ، ١٤	المبين ، المؤمنون
	الدال	١	٦	حميد.
الأعلى	الألف المقصورة	١٩	١- ١٩	الأعلى ، فسوى فهدى ، المرعى

ومن خلال ذلك الجدول يمكن عرض نموذجين من الفواصل التي تشترك في حرف الروي، والفواصل التي انفردت بحرف روي مختلف عن سائر الفواصل في سور المسبّحات.

أ- فواصل مشتركة في المسبّحات:

اختارت الباحثة نموذجين لفاصلتين مشتركتين من حيث حرف الروي ، وأكثرها انتشارًا في سور المسبحات، ومنها الفاصلة المنتهية بحرف الميم ، وقد بلغت إحدى وثلاثين ، والفاصلة المنتهية بحرف النون ، وبلغت إحدى وأربعين فاصلة.

يقول تعالى:

﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا**﴾ (الإسراء/ ٢٣).

﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ (الحديد/ ١١).

﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾(الحديد/ ١٨).

﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾(التغابن/ ١٥).

هذه آيات من سور المسبّحات اتفقت في الفاصلة "كريم ، عظيم" في حرف الروي "الميم" ، وفي مد الياء الذي سبق هذا الحرف ، فهي فواصل متماثلة مسجوعة على وزن فعيل مما وحّد الإيقاع الصوتي ، رغم أنها من سور مختلفة ، وهذا يؤكد أن الإيقاع الصوتي مبعثه اللفظ المسجوع ، وإذا عدنا إلى الآية الأولى نجد لحرف المد الذي تبع حرف الميم المتحرك في" كريما" أثرًا واضحًا في الإيقاع ، الذي امتد بامتداد مدّ الألف لإطلاق الحركة ومدها ، بخلاف الميم في الآيات التالية للآية الأولى التي كان الوقف فيها على السكون ؛ لأن "مبنى الفواصل على الوقف"(١)، وهذا لايعني أن الغاية من الفاصلة السجع لذاته؛ لأن

(١) البرهان في علوم القرآن ١: ٦٩ ، الفاصلة في القرآن الكريم ١٣٥.

الفواصل تابعة للمعنى فهي تؤكد المعنى ، فالإحسان إلى الوالدين يستوجب أن يقال لهما قولاً لينًا لا غلظة فيه ولا قسوة ، فهذا فعل كريم ، فيه نفع كبير.

وفي الآيتين من سورة الحديد جاءت الفاصلة "كريم" وصفًا للأجر الذي أعده الله لمن أنفق في سبيل الله بطيب نفس ، فالأجر كريم في ذاته يتناسب مع طيب نفس المنفق ، ومضاعفة الأجر لمن أنفق، فطيب النفس في الإنفاق ، والمضاعفة في الأجر تستوجب أن يكون الأجر كريمًا. وفي الآية من سورة التغابن جاءت الفاصلة "عظيم " وصفاً للأجر الذي هو عند الله ، فيكون أعظم من أجرالدنيا الذي تسعون إليه من نفع الأموال والأولاد.

ويقول تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ العزيز الحكيم﴾(الحديد/ ١).

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ العزيز الحكيم﴾(الصف/ ١).

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الحشر/ ١).

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الحشر/ ٢٤).

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (الجمعة/ ١)

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الجمعة/ ٢-٣).

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (التغابن/ ١٨).

هذه مجموعة من الآيات من سور المسبّحات تكررت فاصلتها ، وحرف رويها ، واتفقت مع ما سبقها من فواصل" كريم، عظيم" في الآيات السابقة في حرف الروي ، ومدّ الياء الذي سبقه والبنية الصرفية التي جاءت عليها ، كلّ ذلك جعلها تتوحد مع نفسها ، ومع ما سبقها من فواصل في إيقاع صوتي موحد ، تستريح عنده النفس استراحة تأمل في

مدلول هذه الكلمة التي تدل على حكمة الله في تصريف شؤون خلقه، وهو العزيز في ملكه ، فالآيات المذكورة من سورة الحديد، والحشر، والصف ، والجمعة جاءت في سياق تسبيح الموجودات كلِّها لله سبحانه وتعالى.

وفي سورة الحشر تكررت الفاصلة "حكيم" فجاءت في آية الاستهلال ، وفي آية الخاتمة حيث جاءت في سياق ذكر أسماء الله الحسنى" الملك ، القدوس ، العزيز" وكان خاتمتها الحكيم وهو"العالم وصاحب الحكمة ، والمتقن للأمور"[1] ، فكانت الفاصلة رابطًا بين بداية السورة وخاتمتها ، وهذا نوع من أنواع التناسب في السورة ، وسر من أسرار القرآن الكريم.

وتكررت الفاصلة "حكيم" في سورة الجمعة ، حيث جاءت في آية الاستهلال ، وفي الآية الثالثة من السورة نفسها ، حيث جاءت في سياق الحديث عن الحكمة من بعث الرسولﷺ ، ويلاحظ أن فاصلة الآية الثانية "مبين" التي فصلت بين الآيتين ، وإن اختلف حرف رويها إلا أنها متفقة مع لفظة "الحكيم" في المد الذي سبق حرف الروي، وفي الإيقاع الصوتي لحرفي الميم والنون ؛ فهما "حرفان طبيعيان للموسيقى نفسها"[2]، فلم تشذ عن الإيقاع الصوتي في لفظة "الحكيم"، ويبدو أن مضمون الآية اقتضى هذه الفاصلة التي تصف الضلال الذي كان عليه الناس قبل بعث الرسولﷺ.

وفي سورة التغابن جاءت الآية في سياق علم الله بالغيب والشهادة ، فكل المضامين السابقة اقتضت هذه الفاصلة التي تتجلى فيها حكمة الله في خلقه ، وتدبير شؤون ملكه ، فهو الحكيم في تدبير كل أمر من أمور كونه.

ويمكن ملاحظة أن الاتفاق في مضمون الآيات كان له أثر في اتحاد فواصلها ، حيث إن الآيات السابقة كان التسبيح ، وكان ذكر الله موضوعًا مشتركًا بين الآيات .

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته ٣٠٤.

(٢) فواصل الآيات القرآنية ١٥٨.

ويقول تعالى:

﴿**وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾(الإسراء/ ١٠).

﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (التغابن/ ٥).

﴿**كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(الحشر/ ١٥).

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾(الصف/ ١٠).

تكررت الفاصلة " أليم" التي اتحدت في حرف الروي ، ومدّ الياء الذي سبقه ، والبنية الصرفية. فهذا يعني توافقها في الإيقاع الصوتي عند الوقوف على هذه الفاصلة بالسكون ، أو إطلاق الصوت لحركة الميم في "أليما" ، فضلاً عن مناسبتها للمعنى ، فهذه الفاصلة جاءت في سياق الحديث عن عذاب الآخرة الذي أعده الله لمن كفر به في الآيات الواردة في كل من سورة الإسراء والتغابن ، والحشر ، ونجاة المؤمنين من العذاب الأليم في سورة الصف ، فكانت وحدة الموضوع أيضًا عاملاً مهمًا في وحدة الفاصلة فيها.

ويقول تعالى:

﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ (الحديد/ ١٦).

﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ۞ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾(الحديد/ ٢٦-٢٧).

﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (الصف/ ٥).

﴿**مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ**﴾(الحشر/ ٥).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(الحشر/ ١٩).

تكررت في الآيات السابقة الفاصلة " فاسقون " في أكثر من سورة من سور المسبّحات ، وقد سُبِقت بمد الواو في الآيات الواردة من سورة الحديد والحشر، وبمد الياء في سورة الصف والحشر؛ ويعود ذلك إلى موقعها الإعرابي في الآيات ، لكن حرف النون المختومة به ، والمد الذي سبقه وحّدا الإيقاع الصوتي فيها ، وجاءت كل فاصلة مرتبطة بمضمون الآية التي جاءت في سياقها ، فالفاسقون في الآيات من سورة الحديد والحشر والصف جاءت حُكمًا على الكثير من الذين تركوا الالتزام بتعاليم دينهم، وخرجوا عن الطاعة ، ومنهم اليهود من أهل الكتاب.

وإذا أمعنا النظر في الآيتين"٢٦-٢٧" المتتاليتين من سورة الحديد يلاحظ تكرار الفاصلة "فاسقون" وهذا ما يسمىّ بالإيطاء الذي يعني "إعادة لفظة القافية ذاتها بمعناها"(١).

و يقول تعالى :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة/ ٥).

"الظالمين" فاصلة اتفقت مع "الفاسقين" فاصلة الآيات السابقة في الإيقاع الصوتي ، فهي مختومة بحرف النون المسبوق بمد الياء ، واختلفت عن الفاسقين في أنها جاءت في سياق الاستمرار في إنكارهم للتوراة ، وعدم حمل أمانة العلم ، فكانوا ظالمين لأنفسهم.

ويبدو أن وحدة الموضوع كان لها أثر في تماثل الفواصل، فمن خرج عن تعاليم الدين، ولم يعمل بها كان من الفاسقين، ومن الظالمين لأنفسهم ؛ لما سيلحقهم من العذاب بسبب تكذيبهم الرسل عليهم السلام.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٦٢٤، الفاصلة في القرآن ٣٥٢.

ويقول تعالى:

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(الحشر/١٣-١٤).

في الفاصلتين " لا يفقهون ، ولا يعقلون" اتفاق في حرف النون المسبوق بالواو ، واتفاقهما وزنًا مما يشيع إيقاعًا صوتيًا مميزًا في النص القرآني، وبالإضافة إلى تأكيد إصدار الحكم على اليهود بأنهم لا يفقهون ولا يعقلون دون استثناء، بدليل إلحاق الواو في الفعلين ، وإن لا يفقهون تختلف دلالتها عن لا يعقلون ، " فيفقهون جاءت في سياق نفي الفقه عنهم فهم يرون الظاهر ولا يفقهون علم ما استتر عليهم ؛ لأن الفقه معرفة ذات الشيء وباطنه بفطنة وسرعة، ولو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا "(١) ، فهذا يعني أن خشية الله تدرك بالفقه ، والاجتماع على الحق يدرك بالعقل. وفي المسبّحات آيات أخرى اشتركت فاصلتها في حرف الروي منها :

قوله تعالى:

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ۞ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ۞ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً﴾ (الإسراء/ ٩٢- ٩٤).

تكررت الفاصلة "رسولاً" ، وهذا ما سُمّي بالإيطاء ، ووقوع الإيطاء في القرآن ليس بقبيح (٢) ، فلما تقدم طلب المعجزات من الرسول كان مجيء "بشرًا رسولاً" في مكانه يؤكد أن المعجزات ليست من مهمة الرسول ، فيتم بها المعنى ، وفي الثانية جاءت في سياق

(١) أسرار التكرار في القرآن ٢٣٥.

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ : ٥٩

إنكار المشركين أن يكون الرسول بشرًا ، وفي الثالثة اقتضى الرد على إنكارهم أن يكون الرسول بشرًا مجيء "ملكًا رسولاً" مناسبًا سياق الآية لتقدم ذكر الملائكة في الآية ، فتكرار كلمة "رسولاً" اقتضاه المعنى قبل أن يقتضيه الإيقاع الصوتي للآيات.

وقوله تعالى:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۞ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۞ فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى ۞ سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى ۞ إِلَّا مَا شَاء اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى۞وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۞ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۞وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى۞بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۞إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾(الأعلى/ ١-١٩).

سورة مكية تماثلت فواصلها ، انفردت بتكرار حرف الروي فيها ، فقد التزمت الألف المقصورة في فاصلتها المسبوقة بحرف متحرك بالفتح ، وهي جزء من الآية لايمكن الاستغناء عنها ، ولا يسد مكانها غيرها من الكلمات ، وإنّ تلاحق فواصلها المتحدة في حرف الألف في آيات قصيرة ، وتساوي عدد الكلمات في بعض الآيات ، كل ذلك أضفى إيقاعات صوتية هادئة على جو السورة تستدعي الأسماع لتتبع دلائل قدرة الله على الخلق ، وتيسير حفظ القرآن ، والموعظة الحسنة ، والتذكير بوحدة رسالة الأنبياء عليهم السلام .

وبتأمل هذه الفواصل نجد أن الفاصلة روعي فيها المعنى على ما فيها من مراعاة للفاصلة ، فقد جاء في البرهان " زاد الأعلى مراعاة للفاصلة"(١) ، بينما ترى بنت الشاطئ أن صيغة الأعلى لم يعدل إليها عن العلي لرعاية الفاصلة ، فلا يفهم من الأعلى المفاضلة ، بل القصد إلى المُضي بالعلو إلى أقصى مدى دون قيود(٢) ، يبدو أن تعليل بنت الشاطئ أقرب إلى سياق الآية حيث إن القرآن لا زيادة فيه إلا لمعنى ، وإن روعيت

(١) البرهان في علوم القرآن ١: ٦٦

(٢) انظر الإعجاز البياني للقرآن ٢٧١-٢٧٢ .

الفاصلة فيبقى الاهتمام بالمعنى مقدمًا على مراعاة الفاصلة ، والمعنى يفرض الفاصلة ؛ فالأعلى فاصلة مستقرة في مكانها لا تُستبدل بغيرها .

وهذه السورة نموذج للسور المكية التي تميزت بقصر الآيات، وتماثل الفواصل ، والناس في هذه المرحلة المكية لم تستقر في نفوسهم عقيدة التوحيد، فكانوا بحاجة إلى مثل هذه الآيات القصيرة المتميزة بهذا الإيقاع السريع ، الذي يقرع أسماعهم لاستمالة قلوبهم ، واستثارة عقولهم ، فيستجيبون لدعوة التوحيد ، التي كانت من أبرز موضوعات القرآن المكي.

هذه نماذج من الفواصل التي اتفقت في حرف الروي الذي تكرر في الآيات الكريمة ، فاتسق إيقاعها الصوتي في نظام موحد.

ب- فواصل منفردة في المسبّحات:

لقد وجدت بعض الفواصل التي تميزت بمغايرتها سائر الفواصل في اختلاف حرف الروي ، وعدم تكراره في السورة ، كما ورد في الجدول الإحصائي، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

قوله تعالى:

﴿ **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا**﴾ (الإسراء/ ٣٨).

الفاصلة "مكروها" اختلفت عن فواصل سورة الإسراء في حرفها الأخيرالذي لم يرد في السورة سوى مرة واحدة ، لكنها جاءت متناغمة مع الإيقاع الصوتي لسائر الفواصل من خلال حرف المد الذي تبع "الهاء" المتحركة بالفتح ، والمد الذي سبقه ، ويبدو أن المعنى يقتضي هذه الفاصلة التي لا يسُد مسدها غيرها ؛ إذ إنّ ماتقدم في الآيات "٢٩- ٣٧" من البخل ، وقتل الأولاد لايمكن إلا أن يكون مكروهًا عند الله ؛ لما له من آثار سلبية على المجتمع الإنساني المسلم .

ويقول تعالى:

﴿ **وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾(الإسراء/ ٨١) .

الفاصلة "زهوقا" خُتمت بحرف "القاف" الذي لم يتكرر في فواصل السورة ، ولم يأتِ إلا مرة واحدة، لا يدل إلا على اقتضاء المعنى لهذه الكلمة على هذه الصيغة من المبالغة التي دلت على اضمحلال الباطل ، والتناسب مع القاف في أكثر من لفظ في الآية " قل" والحق وزهق" في صوت القاف استدعى مجيء هذه الكلمة ؛ فهو حرف "مجهور قوي الاعتماد في موضعه وشديد اشتد لزومه لموضعه "(١) ، ممايدل على قوة اضمحلال الباطل ، ومما يميز هذه الفاصلة التصديرالذي يعني أن تكون" لفظة الفاصلة بعينها تقدمت في أول الآية ، ويسمّى رد العجز على الصدر"(٢) ، فقد تقدم" زهق" في الآية ، الفاصلة "زهوقا" ، وهذا يزيد الإيقاع الصوتي تناسقًا وجمالاً.

ويقول تعالى:

﴿**وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا**﴾(الإسراء/ ٨٣).

والفاصلة "يؤوسا" أيضًا انفردت في رويها الذي لم يتكرر في آيات أخرى من سورة الإسراء، فهذه اللفظة على هذه الصيغة من المبالغة تؤكد حالة يأس الإنسان من رحمة الله ، إذا نزلت به نازلة ، ومع هذا الاختلاف إلا أنها تتناغم مع فواصل السورة في إيقاعها الصوتي.

ويقول تعالى:

﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ** ﴾(الحديد/ ١٣).

الفاصلة " العذاب" وردت في السورة مرة واحدة ، ولم تتكرر كسائر الفواصل الأخرى ، مما يدل على اقتضاء المعنى لها ؛ فالسورالذي باطنه الرحمة من جهة المؤمنين لا يكون

(١) التحديد في الإتقان والتجويد ١٠٤.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٦١٠ ، الفاصلة في القرآن الكريم : ٢٨٩.

ظاهره إلا عذابًا من جهة المنافقين ، ومع ذلك فيمكن أن تتناغم مع الفواصل الأخرى في المد الذي يسبق حرفها الأخير.

ويقول تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد/ ٢٥).

"عزيز"، فاصلة انفردت عن غيرها في رويها ، وقد ارتبط هذا الاسم من أسماء الله الحسنى بالاسم الذي سبقه " قوي" ؛ لأن القوة مصدرالعزة ، وجاءت الفاصلة في موضعها المناسب لأداء المعنى ، فالله غني عما كلف به عباده من الجهاد ؛ لأنه الله عزيز أي "الغالب القاهر"[١] ، فلا يحتاج إلى أحد من عباده ، هذا بالإضافة إلى توافقها في الإيقاع الصوتي مع فواصل السورة من خلال حرف المد الذي يسبق حرف الروي فيها.

ويقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(الصف/ ٤) .

الفاصلة "مرصوص" اختلفت عن سائر فواصل السورة في حرف الروي "الصاد" الذي لم يتكرر، ولم يأتِ إلا في هذه الفاصلة ، التي اقتضاها المعنى ؛ فلا يوجد أبلغ منها لوصف البنيان المتماسك ، الذي لاتتخلله أية ثغرة ، للتعبيرعن وحدة صف المقاتلين في سبيل الله ، ولِما في هذه الكلمة من قوة يوحي بها النطق بالصاد حيث إنه حرف" قوي ينطق به مفخمًا "[٢]، ويبدو أن هذه الفاصلة تتناغم مع سائر الفواصل في المد الذي سبق الصاد.

---

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته ١٨٣.

(٢) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة .٢١٥.

ويقول تعالى:

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾(التغابن/ ٦).

"حميد" فاصلة تميزت عن غيرها بأن رويها لم يتكرر في فواصل سورة التغابن ، ومع ذلك فهي تتناغم مع الفواصل الأخرى في مد الياء الذي يسبق حرف الروي ، وفي البنية الصرفية ، ويبدو أن المعنى يقتضي هذه الفاصلة من أسماء الله الحسنى المرتبطة بالاسم الذي تقدمها" غني" ، فالله يستحق الثناء ، والحمد لذاته ، وإن لم يحمده حامد ، فهو غني عن عباده ، " فما له ليس لحاجة بل هو غني عنه جواد به حميد على ما جاد به"(١) ، فمن كفر بالرسل وأعرض عن ذكرالله استغنى الله عن عبادته.

ويقول تعالى:

﴿ **قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا**﴾(الإسراء/ ١٠٧).

انفردت "سجّداً" بمخالفتها فواصل سورة الإسراء في أنها لم تسبق بمد، غير أنها جاءت في غاية المناسبة للمعنى، فالعلماء من أهل الكتاب يخرون ساجدين إذا سمعوا القرآن ، وفي كلمة يخرون نستشعر السقوط من علو الذي ينتهي إلى السجود ، وإن "الشدة والجهر في الجيم"(٢) يوحيان بشدة الخضوع والانقياد لله ، فكان المعنى في غاية الحاجة إليها ، مع بقائها في أجواء الإيقاع الصوتي للسورة من خلال مدّ الألف الذي تبع حرف الدال المتحرك بالفتح.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١: ٨١.

(٢) انظر:الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ١٧٦ ، الأصوات اللغوية ٧٠.

ويقول تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء/ ٨٢).

"خساراً" فاصلة سُبقت بمد الألف خلافاً لسائر فواصل سورة الإسراء المسبوقة بمد الياء ، أو الواو، ومع ذلك فإنها تتفق مع الآيات في حرف المد الذي يلي الراء ، مما يعني الاتفاق مع الفواصل الأخرى في الإيقاع الصوتي ، ولم يَخرُج وجودها عن اقتضاء المعنى ، فلا يأتي مكانها أفضل منها، فالقرآن رحمة لمن آمن به، وخسارة اقتصرت على الظالمين المعرضين عنه، الذين خسروا ثواب الآخرة.

وبالمقارنة من خلال ما تقدم بين فواصل سورالمسبحات يمكن ملاحظة ما يلي:

- المد الذي يسبق حرف الروي في فواصل المسبحات ، نحو مد الواو في " شكورا ، فاسقون ، تعلمون ، تفلحون ، " ومد الياء ، في" كبيرا ، كريم ، بصير، عظيم ، مصير" ، ومد الألف في "خسارا ، العذاب ، العقاب" كل ذلك يعني توافق الإيقاع الصوتي الذي يمتد فيه الصوت في فواصل الآيات ، وهذه أبرز صفة مشتركة تجمع سور المسبحات باستثناء سورة الأعلى .
- الفواصل المختومة بحرف النون المسبوق بالمد باستثناء سورة الإسراء والأعلى، فهذا النوع من الفواصل كثُرَ في القرآن الكريم ، حيث يقول الزركشي: " كثُر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحرف المد واللين ، وإلحاق النون ، وحكمته وجود التمكُّن من التطريب"[١] ، وقد أحصى الحسناوي هذا النوع من الفاصلة التي أسماها بالفاصلة الأثيرة فحصرها في(٣٠٥٠) موضعًا[٢] ، ويرى الحسناوي أن هذا النوع من الفاصلة له وقع موسيقي متجانس ، ودلالة عامة على الجمع[٣] ، وما أضافه الحسناوي من الدلالة على المعنى يؤكد أنّ الغرض من الفاصلة ليس الايقاع الموسيقي

(١) البرهان في علوم القرآن ١: ٦٨-٦٩ .

(٢) انظر الفاصلة في القرآن ٢٩٧.

(٣) المصدر نفسه ٣٠٣ .

فقط ، وإنما إفهام المعنى وتأكيده ؛ فالسجع الوارد في القرآن غير مقصود لذاته ولعل الدلالة على الجمع يوحي بها واو جمع المذكر ، وواو الجماعة الملحقة بالفعل، فهذا النوع من الفاصلة يوحي بروح الجماعة واتحاد الصف.

- تكرار أسماء الله الحسنى في فواصل بعض الآيات ، نحو "بصيرا ، شكورا" في سورة الإسراء ، و" قدير، رحيم" في سورة الحديد ، و"حكيم ، رحيم " في سورة الحشر ، و"حكيم" في سورة الصف و"بصير" في سورة التغابن ، ومن أكثر سورالمسبحات التي كثُر فيها هذا النوع من الفاصلة سورة الحديد ، وأسماء الله الحسنى كما يتبين في الجدول الإحصائي جاء أكثرها على البنية الصرفية فعيل ، والقليل منها جاء على وزن فعول ، نحو "شكور، وغفور" الواردتين في سورة الإسراء ، ويرى الحسناوي أنها تضفي طابعاً من القداسة والأهمية على الفواصل ، وتنزل في الآيات منزلاً حسناً يستقر في النفوس(1) ، فإن قُدسية هذه الأسماء وجلال قدرها توحي بظلال القداسة على الآيات ، مما جعلها تستقر في النفس ، وإنّ هذه الأسماء الحسنى تتناسب مع أجواء قوة العقيدة والإيمان التي شاعت في السور.

و يتبين اتفاق كل من سورالحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن بفواصل الواو والنون أوالياء والنون ، وكان مجموعها في هذه السور مجتمعة ثماني وأربعين فاصلة توحي كما تقدم بالجمع ، وكانت أكثر ترددًا في سورة الصف والجمعة ، مما يقوّي دلالة فاصلة الواو والنون ، والياء والنون على الجمع ، الذي نلحظه في اصطفاف المقاتلين في سورة الصف ، واصطفاف المصلين في سورة الجمعة.

- التزام سورة الإسراء بحرف الروي المتحرك بالفتح ، وإتباعه بمد الألف ، نحو "وكيلا شكورا كبيرا مفعولا نفيرا تتبيرا"... ، وهكذا إلى آخر السورة ، والمدّ" أن يمتد الصوت بحروف المد بعد إخراجها من مخرجها والمد في الألف أكثر من المد في الياء والواو ؛

---

(1) انظر: الفاصلة في القرآن ٣١٤.

لأن اتساع الصوت بمخرج الألف أشد من اتساعه لهما"[1] ، فهذا يعني إطلاق الصوت مما يعني الترنم ، وإن كانت غاية الفاصلة مناسبة المعنى وإفهامه.

- تكرار حرفي الروي اللام والراء في سورة الإسراء ، وكلا الحرفين" من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وإن كلاً منهما مجهور"[2] ، ولعل هذا الصوت يتناسب مع أسلوب الدعوة إلى التوحيد والإيمان ، وتقرير البعث والحساب في ما تدعو إليه موضوعات القرآن المكي ، هذا بالإضافة إلى التوافق في الإيقاع الصوتي بين هذين الحرفين ، ويزداد جمال هذا الإيقاع بمدّ الألف الذي يتبع هذين الحرفين ، وسائر الحروف الأخرى.
- تنوع حرف الروي أدى إلى تنوع الفواصل ، وتلونها بإيقاعات صوتية يتم بها المعنى وفق ما يقتضيه السياق ، فكثرت فواصل التمكين وهو "أن يمهد قبل الفاصلة تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكَّنة في مكانها ، مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة، متعلقاً معناها بمعنى الكلام كلِّه تعلقاً تاماً بحيث لو طُرحت اختل المعنى واضطرب الفهم"[3] ، وقد تبين من خلال النماذج المطروحة للفواصل شدة ارتباطها بالمعنى.
- قصر الفواصل في سورة الأعلى؛ لقصر آياتها ، فجاءت الفاصلة كلمة واحدة ، وفي السور الأخرى من المسبحات تطول وتقصر وفق طول الآيات وقصرها ، "فإن الفواصل تقصر في السور القصار ، وتتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطويلة"[4].

---

[1] التحديد في الإتقان والتجويد ١٠٦.

[2] الأصوات اللغوية ٥٨.

[3] البرهان في علوم القرآن١: ٧٩ وانظر الإتقان في علوم القرآن ٦١٦.

[4] التصوير الفني في القرآن الكريم ٧١.

٣- **دلالة الفاصلة والغرض منها :**

مما تقدم يمكن ملاحظة أبرز أغراض الفاصلة :

- إفهام المعنى وتأكيده في النفس ؛ فالارتباط بين الفاصلة والآية بيّن ، فتلتحم الفاصلة بالآية التحامًا يتقبله العقل قبولاً تستريح له النفس ، وهي ركن من أركان الآية لفظًا ومعنىً.
- إضفاء نغم وإيقاع صوتي يبعثان الراحة في النفس ، مما يسترعي الأسماع ، ويلفت الانتباه إلى النظام الصوتي في القرآن الذي يعني "اتساق القرآن الكريم في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته وسكناته"(١) .

ولم يكن مراعاة الفاصلة على حساب المعنى ، لأن فواصل الآيات بُنيت على السجع المحمود الذي " يكون اللفظ فيه تابعًا للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعًا للفظ "(٢) ، فهذا يعني شدة العناية بالفاصلة التي تؤكد المعنى ، وتحقق التناغم الصوتي الذي يضفي إيقاعًا صوتيًا تستريح عنده النفس، وتتقبل المعنى أفضل قبول، " فتكون شاجية النغم ، حلوة الجرس ، عذبة الرنين، تطرب بلفظها كما تطرب بمعناها ، ليتم لها الحسن من جميع الجهات"(٣).

- الدلالة على قمة الإعجاز اللغوي الذي يتجلى في بلاغة الفاصلة ونظامها الصوتي ، والذي لايمكن أن يصل إليه بشر مهما أوتي من فصل القول ، وحسن الخطاب.
- ومن دلالة الفاصلة أنها سمة يتميز بها القرآن عن الشعرالذي تميزه القافية ، وعن النثر الذي يميزه السجع.

---

(١) فواصل الآيات القرآنية ٨٤.

(٢) المثل السائر ١: ٢١٣

(٣) فواصل الآيات القرآنية ٨٤.

الفصل الرابع

الدراسة البيانية

البيان لغةً واصطلاحًا:

البيان لغةً: الظهور والوضوح والانكشاف([1]).

واصطلاحًا:هوعلم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه ([2])، وعرف بأنه معنى واحد يستطاع أداؤه بأساليب عدة وطرائق مختلفة في صورة رائعة من التشبيه أو الاستعارة أو المجاز أو الكناية ([3]) ، وهذا ما ذهب إليه علماء البلاغة المحدثون.

ستنحصر الدراسة البيانية في التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، من خلال تقديم نماذج من الصور البيانية في المسبحات.

وبالاعتماد على بعض كتب البلاغة ، وبعض كتب التفسير ، والاعتماد في بعض الأحيان على الاجتهاد في حصر الصور البيانية في سور المسبحات ، سيتم تحليل نماذج من هذه الصورالبيانية وقد تم حصر بعضها في الجدول الآتي:

([1]) لسان العرب مادة بين.

([2]) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع ١٦٣، البيان في ضوء أساليب القرآن٢١.

([3]) جواهر البلاغة ٢٩٤ ، وانظر البيان في ضوء أساليب القرآن ٢١

السورة	آيات التشبيه	آيات المجاز	آيات الاستعارة	آيات الكناية
الإسراء	٢٧ ، ٨٢ ١٠٠	٧، ١٢، ١٩ ٥٩،٤٥، ٧٠ ٧٨ ، ٦١ ١٠٧	١٢ ، ١٣ ، ٢٤، ٣٦، ٤٦، ٥٦، ٥٨ ٦٤ ، ٧٠، ٧١، ٧٢ ، ٨١	٢٤ ، ٢٩ ، ٤٦ ٥١ ، ٥٤ ، ٧٦ ٨٣ ، ٨٨ ، ١٠٠ ١٠٣
الحديد	١٦ ، ٢٠ ٢١	١٣، ٢١	٩ ، ١٠ ، ١١، ١٢، ١٣ ، ١٧، ١٨، ٢١ ، ٢٥	١، ٤ ، ١٤ ، ١٥ ٢٩
الحشر	١٥ ، ١٦		٧، ٩، ١٥، ٢١	٦، ١٢ ، ١٤ ١٨ ، ٢٠
الصف	١٤، ٤		٨ ، ١٠	٢ ، ٣ ، ٤
الجمعة	٥	٧، ٩	٨	٣، ٢، ٦ ، ٧
التغابن	٩ ، ١٤		٥ ، ١٢، ١٧	٤ ، ١١
الأعلى		٤		١١ ، ١٣

نماذج من الصور البيانية في المسبحات:

١- التشبيه:

التشبيه لغةً: التمثيل ، وأشبه الشيءُ الشيءَ : ماثله ([1]).

واصطلاحًا: " إلحاق شيء بذي وصف في وصفه ، أن تثبت للمشبه حكمًا من أحكام المشبه به"([2]) وفي تعريف آخر هو "الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى"([3]) ، ويبدو أن المفهومين يتفقان على المشاركة في وصف أو معنى بين شيئين.

يقول تعالى:

﴿ **إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا**﴾(الإسراء/ ٢٧) .

جاء في الكشاف "أن المبذرين أمثال الشياطين في الشرارة ؛ لأنه لا شر من الشيطان" ([4]) ، فيبدو أن التشبيه في هذه الآية تشبيه بليغ حذفت منه الأداة ووجه الشبه، فالمشبه: المبذرين ، والمشبه به: إخوان الشياطين ، وقد حُذِفت الأداة ، ووجه الشبه الذي يمكن أن نلحظه من سياق الآية ، فالشر صفة مشتركة بين االمبذرين والشياطين ، وهذه صورة في غاية الذم للمبذرين والتبذير ، وللعقل أن يتخيل بشاعة هذه الصورة المرتبطة برمز الشر والفساد.

---

(١) لسان العرب مادة شبه.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣: ٤١٤.

(٣) الإيضاح في علو البلاغة ١٦٤ ، جواهر لبلاغة ٢١٩ ، القرآن والصورة البيانية ٤٥.

(٤) الكشاف٣: ٥١٢- ٥١٣

ويقول تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء/ ٨٢).

يمكن أن يكون في الآية تشبيه بليغ ، فشبه القرآن بالشفاء والرحمة ، وحذف الأداة ووجه الشبه ، فهذه الصورة تبرز موقع القرآن في صلاح الناس كموقع الشفاء من المرض.

ويقول تعالى:

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّـي إِذًا لَّأَمْسَـكْتُمْ خَشْـيَةَ الإِنفَـاقِ وَكَـانَ الإنسَـانُ قَتُورًا﴾(الإسراء/ ١٠٠).

في هذه الآية تشبيه بليغ في " خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي " ،" فمن التشبيه البليغ إضافة المشبه به إلى المشبه نحو لبس فلان ثوب العافية"[1] ، فالمشبه في الآية رحمة الله ، والمشبه به خزائن ملآى بالفضائل والنعم ، فهذه صورة لنعم الله التي لانهاية لها ، والتشبيه البليغ أقوى أنواع التشبيه ،"فترك كلمة التشبيه ووجه الشبه ، كقولك "زيد أسد" أقوى أنواع التشبيه"[2] ، "وذلك أنك ادعيت الاتحاد بينهما بحذف الأداة ، والتشابه في كل شيء بحذف الوجه فسمّي بليغًا"[3]، وجاء في روح المعاني أن في كلمة الخزائن استعارة[4]، وهي تصريحية ، فصرح بالمشبه به ، وهو الخزائن وحذف المشبه، وهو النعمة ، ويبدو أن التشبيه أقرب من الاستعارة ؛ لذكر طرفي التشبيه في التركيب ، حيث أضيف المشبه به إلى المشبه.

---

(١) جواهر البلاغة ٢١٧ ، البلاغة الواضحة ٢٥.

(٢) مفتاح العلوم ٤٦٤.

(٣) جواهر البلاغة:٢٤١ ، وانظر القرآن والصورة البيانية ٨٨.

(٤) انظر :روح المعاني ١٥: ١٨٠.

يقول تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد/ ١٦).

في هذه الآية نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ولم يحملوه (١)، فالمشبه المؤمنون ، والمشبه به الكافرون ، والأداة الكاف، ووجه الشبه قسوة القلوب يفهم من سياق الآية ، وفي هذا التشبيه تحذير من أن يقع الشبه بين المؤمنين وأهل الكتاب، في قسوة القلب جراء الابتعاد عن كتابهم ، وعدم الالتزام بتعاليمه ، وهذا تشبيه مفرد غير تمثيل" وجه الشبه فيه غير منتزع من متعدد"(٢).

ويقول تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد/ ٢٠).

التشبيه في هذه الآية تشبيه تمثيل ، "والتمثيل متى كان وجهه وصفًا منتزعًا من عدة أمور"(٣) ، فالمشبه: صورة الدنيا بمسراتها من لهو وزينة وتكاثر في الأموال والأولاد، وسرعة انقضائها ، والمشبه به: صورة نبات أنبته الغيث ، فهاج واصفر، فأصبح هشيمًا يبسًا، ووجه الشبه: صورة شيء يعجب الناظرين ويسرهم في بدايته ثمّ يزول ، وهذا تشبيه محسوس بمحسوس أي المدرك بإحدى الحواس الظاهرة "(٤) ، فطرفا التشبيه يمكن إدراكهما بالحواس، وفي هذه الصورة تحقير لشأن الدنيا التي لا تدوم مباهجها ونعمها، فما تلبث أن تزول سريعًا، فكأنها لم تكن.

---

(١) انظر:مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٤٥١.

(٢) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١٩٠- ١٩١ ، وجواهر البلاغة ٢٣٤

(٣) مفتاح العلوم ٤٥٥ ، و الإيضاح في علوم البلاغة ٤٦٤.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ١٦٨.

وتبع هذه الصورة التي تحذر من الاغترار بالدنيا ، صورة تدعو إلى المسابقة والمسارعة إلى الجنة التي لا يزول نعيمها ، ولا تنتهي بهجتها.

يقول تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد/ ٢١).

هذا تشبيه مفرد غير تمثيل، فالمشبه: عرض الجنة ، والمشبه به: عرض السماوات والأرض ، ووجه الشبه: الاتساع الكبير، وذُكِر العرض دون الطول ؛ لأن العرض أقل من الطول، فإذا كان هذا عرضها ، فعُرِف أن طولها أبسط وأمد[١] ، فليتخيل العقل سعة الجنة ، وهذا تشبيه "أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم ، وفي ذلك تشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع مالها من السعة"[٢]، وهذا يعني تشبيه ما يدرك بالعقل بما يدرك بالحواس ، ويتبين من هذه الصورة المشوقة للجنة ، والصورة التي سبقتها المحقرة للدنيا تأكيد الصورة للمعنى وتجليته وتوضيحه في النفس ، ويبدو في هاتين الصورتين براعة المناسبة بينهما ،" فلما حقر الحياة الحسية الفانية وصورها الخضراء السريعة الانقضاء دعاهم إلى الحياة الباقية"[٣].

يقول تعالى:

﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الحشر/ ١٥).

الآية تصور بني النضير الذين ذاقوا سوء عاقبتهم وعداوتهم الرسول من قتل في الدنيا، ولهم عذاب في الآخرة ، فكان مثلهم كمثل أهل بدر[٤]، فالمشبه: اليهود وما لحقهم من ذل وخزي وجلاء وسوء العاقبة في الدنيا جراء كفرهم ومعاداتهم الرسولﷺ ، كما جاء

---

(١) انظر الكشاف ٦: ٥٠ ، روح المعاني ٢٧: ١٨٧.

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٨٤، الإتقان في علوم القرآن ٥٠٨

(٣) محاسن التأويل ١٦ : ٥٦٩٠

(٤) المصدران السابقان انظر الكشاف ٦: ٨٣ ، والتفسير الكبير ٢٩: ٢٩١.

في الآيات الأولى من سورة الحشر قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الحشر/٣-٤) ، والمشبه به: أهل بدر وما لحقهم من قتل وخزي وهزيمة في الدنيا جراء كفرهم ومعاداتهم للرسولﷺ ، ووجه الشبه الذل والخزي والهوان فهو تشبيه غير تمثيل ، فهذه صورة تُذكر بصورة مشابهة قريبة العهد بهم تؤكد عاقبة من عادى الله ورسوله ﷺ ، فينجلي المعنى ، ويتضح في النفس.

وفي السورة نفسها ، يقول تعالى:

﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾(الحشر/١٦).

صورة أخرى للمنافقين في إغراء اليهود بنصرتهم ثم ّتركهم وتخلّيهم عنهم مثل الشيطان يأمر الإنسان بالكفر ثُمّ يتبرأمنه([1])، فالمشبه المنافقون الذين وعدوا اليهود بنصرتهم ثمّ تخلوا عنهم عند إخراجهم من ديارهم وذلك في قوله تعالى:﴿**لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ** ﴾ (الحشر/١٢)، والمشبه به: الشيطان الذي أغوى الإنسان بالكفر، ثُمّ تبرأ منه عند العاقبة ، ووجه الشبه: الوعد بالشيء ثُمّ إخلافه والتبرؤ من الوعد، فهو تشبيه تمثيل، فهذه صورة بشعة للمنافقين، منفرة لارتباطها بالشيطان رمزالشر والفساد والإغواء.

يقول تعالى:

﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾ (الصف/٤).

صورة للمقاتلين في سبيل الله ، المشبه فيها: المقاتلون الذين تراصت صفوفهم ، المشبه به: بنيان محكم البناء متقن لا فرجة فيه ولاخلل، ووجه الشبه التراص والثبات، فهذا تشبيه مفرد ذكرت أداته وحذف وجه الشبه يدل على قوة التشابه بين طرفي التشبيه فاستغني عن ذكره ، وهذا تشبيه يقرب المعنى من الذهن ويجليه ، ويرغب فيه فثبات البنيان يدل على ثبات المقاتلين في صفوفهم.

---

(١) المصدران نفسهما.

ويقول تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(الجمعة/ ٥).

في هذه الآية صورة لليهود الذين حُمّلوا التوراة فلم يعملوا بها، فالمشبه: اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها ، وأنهم غير عاملين بها ولا منتفعين بآياتها ، والمشبه به: حمار يحمل كتبًا كبارًا لايعلم ما فيها ، ولاينتفع من علمها ، فلا يناله منها إلا الكد والتعب(١) ، ووجه الشبه حمل أشياء ثقيلة كثيرة النفع ، لا ينتفع بها ؛ لجهل حاملها بما فيها من نفع ، فلا يناله منها إلا تعب وكد، فهذا تشبيه معقول بمحسوس ، وتشبيه تمثيل وجه الشبه منتزع من عدة أمور ، ويقول الجرجاني :" الشبه منتزع من أحوال الحمار ، وهو يحمل الأسفار التي هي أوعية العلوم ، وثمرة العقول ، ثُمّ لا يحس بما فيها ولا يشعر بمضمونها ، ولا يفرق بينها وبين سائر الأحمال التي ليست من العلم في شيء ، ولا من الدلالة عليه بسبيل ، فليس له مما يحمل حظ سوى سوى أنه يثقل عليه ويكد جنبيه ، فهو أي وجه الشبه كما ترى مقتضى أمور مجموعة ، ونتيجة لأشياء ألفت وقرن بعضها إلى بعض"(٢) ، وفي هذه الصورة ذم لليهود ، وكشف سوء طباعهم من بلادة حسهم ، ويبين الفخر الرازي علة اختيار الحمار ليضرب مثلاً لليهود في عدة أمور منها: إن معنى الحمل أظهر وأغلب في الحمير بالنسبة لغيرها من الحيوانات كالبغال والخيول ، وفيه من الجهل والبلادة والذل والانقياد مالا يكون في غيره من الحيوانات ، وبين الحمار والأسفار مناسبة لفظية لما بينهما من سجع محمود(٣) ، فهذه صورة في غاية الذم لليهود ، فالكسل والجهل والبلادة من ألصق الصفات بالحمار الذي ضُرب مثلاً لهم ، "وإن كان قد ضُرب مثل لليهود، فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن وترك العمل به ، ولم يؤد

(١) انظر الكشاف ٦: ١١١ ، والبلاغة فنونها وأفنانها ٦٦.

(٢) أسرار البلاغة ٨١.

(٣) انظر:التفسير الكبير ٣٠: ٦.

حقه ،ولم يرعه حق رعايته"[1] ، ويحسُن أن يكون هذا المثل لكل من لا يستفيد من مما أعطي من علم نافع ، فلا يحقق به نفعاً.

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(التغابن/ ٩).

"سُمي يوم القيامة يوم التغابن لأنه غبن أهل الجنة أهل النار، أي أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النارعلى طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، فوقوع الغبن يوم القيامة هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع" [2] ، ولعله يُفهم من هذا المعنى أن التشبيه في الآية تشبيه تمثيل ، فشبه تغابن الناس في منازلهم يوم القيامة بتغابن الناس في البيع والشراء في الدنيا بجامع المبادلة في المنازل في يوم القيامة وفي البيع والشراء في الدنيا ، وبالنظر في ظاهر اللفظ يمكن أن نتبين أن التشبيه بليغ، يقول ابن عاشور:" وهو تشبيه مركب بمنزلة التشبيه البليغ ، إذ التقدير ذلك يوم مثل التغابن"[3] ، المشبه: اسم الإشارة ذلك المشار به إلى يوم الجمع "يوم القيامة" والمشبه به: يوم التغابن، فحذف وجه الشبه وحذفت الأداة ، فهذا مشهد يصور جمع الناس يوم القيامة ، وما يحصل بينهم من تغابن .

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التغابن/ ١٤).

يبدو أن في هذه الآية تشبيهًا بليغًا ، طرفه الأول الأزواج والأولاد ، فالمشبه بعض الأزواج والأولاد؛ لأن من تفيد التبعيض، والمشبه به وهو الطرف الثاني الأعداء ، ووجه

---

(١) محاسن التأويل ١٦ : ٥٨٠٠

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٧

(٣) التحرير والتنوير ٢٨: ٢٧٦.

الشبه الضرر الواقع من الأولاد والأزواج ، تشبيهًا له بالضرر الذي يلحق من الأعداء ، "ويظهر أن هذه العداوة إنما هي للكفر والنهي عن الإيمان ، ولا تكون بين المؤمنين ؛ فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدوّاً لهم"(١) ، فهذه صورة لكل من انشغل بالزوج أو الولد عن طاعة الله .

وبعد هذه الجولة مع تشبيهات المسبّحات يمكن ملاحظة ما يلي :

- عناصر التشبيهات مستمدة من البيئة المحيطة بالإنسان ، القريبة منه ، المشاهدة بالعيان في كثير من التشبيهات ، فمنها عنصر الحيوان ، فكان الحمار مثلاً لليهود الذين لم يحملوا أمانة العلم والهدى، وكان النبات مثلاً للحياة الدنيا في بهجتها وسرعة انقضائها ، وكان البنيان المرصوص مثلاً لِلُّحْمة والثبات بين المقاتلين في سبيل الله ، هذا وقد جاءت بعض العناصر عقلية غير مدركة بالحواس ، كتشبيه المبذرين بالشياطين ، فصورة الشياطين غير مدركة ، لكن لها حضور في الذهن يرتبط بالفساد ، فلكل إنسان أن يتخيل حجم هذا الشر والفساد ، مما يطلق العنان لرسم هذه الصورة المنفرة.
- الدقة في التعبير ، واختيار الألفاظ الموحية ، ويلحظ ذلك من خلال وصف البنيان بأنه مرصوص مما يوحي بوحدة الصف ، والثبات والتضامن بين المقاتلين.
- إن التشبيهات ليست عنصرًا جماليًا في النص ، بل هي عنصر رئيسي في الجملة القرآنية ، توضح المعنى ، وتقربه من الذهن ، وتثيره في النفس ، يقول عبد القاهر الجرجاني: " اعلم أن مما اتفق عليه العقلاء أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقل عن صورها الأصلية كساها أُبهة ، ورفع من أقدارها ، وشبّ من نارها، وضاعف قواها ، في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثارها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً "(٢) ، فمن شأن التشبيه إضفاء الجمال اللغوي على النص القرآني ، وتوضيح المعنى ، فبالتشبيه يزداد المعنى جمالاً ويستقر في النفس، ويعلق في الذهن.

---

(١) التفسير الكبير ٣٠: ٢٧.

(٢) أسرار البلاغة ٩٢-٩٣.

- "تشبيهات القرآن تشبيهات خالدة خلود الزمن ، دائمة دوام الدهر ، بناها رب العباد من عناصر الطبيعة الناطقة بعظمته"(١)، ويكفي لهذه الأمثلة تخليدًا أنها آيات القرآن التي يتردد صداها في الآفاق على مر الدهور، فيلامس القلوب ، وتقبله العقول .

٢- المجازالمرسل :

المجاز لغة: يقال في اللغة جزت الموضع: سرت فيه وقطعته(٢)، والمجاز في الاصطلاح : اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ، لعلاقة مع قرينة دالة على عدم إرادة المعنى ، وقد تكون العلاقة المشابهة ، فهو استعارة ، وإذا كانت غير المشابهة فهو مجازمرسل(٣)

والمجاز المرسل عرفه الخطيب القزويني بأنه" ماكانت العلاقة بين ما استعمل فيه ووضع له ملابسة غير التشبيه، كاليد إذا استعملت في النعمة"(٤).

ومن المجازالمرسل في المسبّحات ما يأتي:

يقول تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلَاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(الإسراء/ ٧٨).

المجاز واقع في كلمة " قرآن الفجر" علاقته تسمية الشيء باسم جزئه (٥) قرآن الفجر، أي صلاة الفجر، فسميت الصلاة باسم جزء منها ، وهو القرآن ، والمقصود بالقرآن القراءة ، لأن قراءة القرآن جزء من الصلاة ، فذُكر الجزء وأريد الكل ، فالمجاز مرسل علاقته الجزئية ، فذكر الجزء يدل على أهميته ، فهذا تأكيد على أهمية القرآن ، وأن الصلاة لا تصح إلا به.

---

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن ٧٥.

(٢) انظر: مقاييس اللغة مادة جوز.

(٣) جواهر البلاغة ٢٥١ ،

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٥ ، جواهر البلاغة ٢٥٢

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٠٧، وانظر: البرهان في علوم القرآن ٢: ٢٦٣، ٢٦٦، وانظر: الإتقان في علوم القرآن ٤٩٥.

ويقول تعالى:

﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾(الإسراء/ ١٠٧).

المجاز في كلمة الأذقان ، والعلاقة جزئية ، لأن الذقن جزء من الوجه ، فالخرّ يكون على الوجه ، لا على الذقن، فذُكِر الجزء وأُريد الكل ، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وفي السجود على الأذقان إيحاء بالتذلل والخضوع الذي تغلغل في نفوس الصالحين من أهل الكتاب إيماناً بالقرآن.

ويقول تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ (الإسراء/ ١٢).

المجازالمرسل في كلمة مبصرة أي مضيئة ، والإضاءة سبب لحصول الإبصار، فأطلق المسبب على السبب[١] ، فالإبصارمسبب عن الإضاءة ، وهوالنتيجة التي تسترعي الانتباه ، وتحقق الفائدة من إضاءة النهار.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء/ ٥٩).

المجاز المرسل في كلمة مبصرة ، أي" فيها إبصار لمن تأملها يبصربها رشده"[٢] ، فإبصار الرشد مسبب عن الناقة ، فالمجاز علاقته السببية.

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٢٠ : ١٦٦.

(٢) التفسير الكبير ٢٠: ٢٣٦.

ويقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء/ ٧٠).

يبدو أن في الآية مجازًا مرسلاً علاقته المحلية في " في البر والبحر " ، فأُطلق محل حملهم وأُريد حالهم ، وهم محمولون على ما يُركب من رَكوبة في البر، أو ما يركب من سفن في البحر.

ويقول تعالى:

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ (الإسراء/ ٧).

"المساءة والكآبة تُسلّط على بني إسرائيل حتى تبدوعلى وجوههم" (١) ، يبدو أن في كلمة "وجوهكم" مجازًا مرسلاً علاقته الجزئية ، فأُطلق الجزء وأُريد الكل ، فالإساءة تقع عليهم ، لكن تبدوعلاماتها على وجوههم ، والوجه جزء ، أي جزء من الكل.

ويقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ **(الإسراء/ ٦١).**

في لفظة "طيناً" مجازمرسل علاقته اعتبارماكان ، فالأمر بالسجود لآدم الذي أصل تكوينه من الطين، وفي نظرة إبليس لآدم أنه مخلوق من طين تقليل من شأنه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥: ٣٧.

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (الحديد/ ١٣).

المجاز واقع في "فيه الرحمة" ، والمراد من الرحمة الجنة التي فيها المؤمنون ؛ لأن باطن السور الذي فيه الرحمة يلي المؤمنين ، وظاهره الذي يلي الكافرين فيه العذاب[1] ، فالمؤمنون حالون في الجنة محل الرحمة ، فأطلق الحال وأُريد المحل ، فالعلاقة حالّية ، فهذا حال أهل الجنة ينعمون في رحمة الله ، وأمّا الكافرون فهم باقون في العذاب، فالمؤمنون حالون في باطن السورفي الرحمة، والكافرون حالّون في ظاهرالسورفي العذاب.

ويقول تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد/ ٢١).

المسابقة هنا إلى مايوجب المغفرة من توبة ، وسائر ماكُلّف به المؤمن[2]، فالمجاز في كلمة مغفرة مجازمرسل علاقته المسببية ، لأن التوبة سبب في المغفرة ، فأطلق المسبب وأُريد السبب ، وفي هذا المجاز اختصار وتأكيد على نتيجة المسارعة إلى الأعمال الصالحة.

يقول تعالى:

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة/ ٧).

المجاز المرسل في "أيديهم" ، وعلاقته السببية ؛لأن أيديهم سبب تقديم المعاصي والآثام ، فأطلق السبب وأُريد المسبب، وهو المعاصي والآثام والذنوب.

---

(١) انظر: التفسير الكبير ٢٩: ٢٢٧.

(٢) انظر: التفسير الكبير ٢٩: ٢٣٥.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الجمعة/ ٩).

المجاز المرسل في "ذكر الله" ، والمراد بذكر الله الخطبة والصلاة"[١] ، بدليل الآية التي تليها في قوله تعالى:﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة/ ١٠) ، فأطلق الكل ، لأن ذكر الله عام ، وأُريد الجزء أي الخطبة والصلاة فالعلاقة كلية ، وهذا المجاز يؤكد وجوب ذكرالله في كل الأوقات ، وبالأخص في يوم الجمعة، وقت الصلاة ، فسياق الآية في الحديث عن صلاة الجمعة.

وفي الآية مجاز مرسل آخر في "البيع" علاقته الجزئية ، أُطلق البيع ، وقُصد جميع أنواع المعاملة من بيع وشراء وإجارة وعقود وغيرها[٢]، فالمجاز علاقته الجزئية ، فالبيع جزء من معاملات أخرى.

ويقول تعالى:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (الأعلى/ ٤).

المرعى اسم مكان الرعي ، أُطلق على ما ينبت فيه ويرعى ، والمرعى النبت الذي ترعاه السوائم[٣] فيبدو أن المجاز في لفظة " المرعى" مجاز مرسل علاقته المحلية ، لأن المرعى محل لما ينبت فيه من نبات.

واستكمالاً للحديث عن المجاز لا بدّ من الإشارة إلى ورود أمثلة للمجاز العقلي أو الإسنادي ، وهو "أن يسند الفعل أوشبهه إلى غيرما هو أصالةً لملابسته له"[٤].

---

(١) الكشاف٦: ١١٨ ، روح المعاني ٢٨ : ١٠٢.

(٢) انظر صفوة التفاسير ١٨: ٥٤.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠: ٢٧٨.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ٤٩٤ ، وانظر القرآن والصورة البيانية ١٥٥.

ويقول تعالى:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(الإسراء/ ٤٥).

المجاز في كلمة مستورًا أي ساترًا، والعلاقة إقامة صيغة مقام أخرى (١) ، فأقيم اسم المفعول مقام اسم الفاعل ، فالمجاز عقلي ؛ لأن الحجاب في الأصل يكون ساترًا وليس مستورًا ، وهذا مما يلفت الانتباه إلى هذا المعنى ، فيتأكد في النفس.

ويقول تعالى:

﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء/ ١٩)

"السعي المشكورهوالسعي المشكور ساعيه ، فوصفه به مجاز عقلي ، وجعل الوصف للعمل ؛ لأنه أبلغ في الإخبار عن عامله بأنه مرضي عنه"(٢)، فالسعي المشكور لابدّ أن يُشكر ساعيه فأسند اسم
المفعول"مشكورا" للسعي لا للساعي، والأصل أن يسند للساعي.

ومما تقدم يلاحظ أن المجاز يلفت الانتباه للمعنى المقصود ، ويؤكده في الذهن ، ويقره في النفس، بالإضافة إلى الاختصار في التعبير، "فالمجاز توسع في اللغة ، وافتنان في التعبير، ومبالغة في المعنى وإيجاز في العبارة"(٣) ، فهو حلية لفظية ، وتأدية للمعنى وتمكينه.

٣- الاستعارة :

الاستعارة لغة: نقل الشيء من حيازة فرد إلى فرد آخر(٤).وفي الاصطلاح وردت عدة مفاهيم للاستعارة منها: " أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر ، مدعيًا

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٤٩٨.

(٢) التحرير والتنوير ١٥: ٦١.

(٣) البيان في ضوء أساليب القرآن ١٥٥.

(٤) انظر :المعجم الوسيط مادة عار ، والبيان في ضوء أساليب القرآن ١٥٨

دخول المشبه جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك ما يخص المشبه به"[1] ، أوهي "نقل المعنى من لفظ إلى لفظ بسبب مشاركة بينهما"[2] ، أو "استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي"[3].

ومن الاستعارات في سور المسبِّحات ، قوله تعالى:

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (الإسراء/ ١٣).

الاستعارة واقعة في كلمة طائره "فجعل الله فعل العبد كالطير الذي يطير إليه"[4] ، فشبه "عمل العبد" بالطائر بجامع اللزوم، فالطائر يلزم جهة معينة يمنة أو يسرة ، مما يستدل به على الخير أو الشر ، والعمل يلزم صاحبه خيرًا أو شرًا، فاستعير اللفظ الدال على المشبه به وهو الطائر على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية ، فحذف المشبه وصرح بالمشبه به فهي تصريحية ، "وأصلية حيث وقعت الاستعارة في اسم جنس" (طائر)[5] ، وهذه الصورة تؤكد شدة لزوم العمل لصاحبه.

ويقول تعالى :

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ **(الإسراء/ ٢٤).**

الاستعارة واقعة في كلمة الذل ، فقد شبه الذل بالطائر بجامع الخفض ، فحُذف المشبه به وكُني عنه بأحد لوازمه وهو الجناح ، فالاستعارة مكنية أصلية [6]، وفي هذه الصورة رفع

---

(١) مفتاح العلوم ٤٧٧.

(٢) المثل السائر ٨٣.

(٣) جواهر البلاغة ٢٥٨ ، وانظر القرآن والصورة البيانية ١٧١.

(٤) التفسير الكبير٢٠: ١٧٠.

(٥) مفتاح العلوم ٤٨٩.

(٦) انظر البلاغة فنونها وأفنانها٢١٢، ١٧٩، ذُكر نفس المثال .

للعبد، رغم أن الظاهر وضع له، قال الراغب:" لمّا كان الذل على ضربين : ضرب يضع الإنسان ، وضرب يرفعه، وقصد في هذا المكان إلى ما يرفع ، فكأنه قيل استعمل الذل الذي يرفعك عند الله "(١).

صورتان للطائر في الآيتين السابقتين، الأولى تصريحية في قوله:" وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ" (الإسراء/ ١٣)، والثانية مكنية في قوله" وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ" (الإسراء/ ٢٤)، وهذا مما يدل على التوسع في اللغة من خلال البيان، وفي كل من الاستعارتين: استعارة الطائر لعمل العبد، واستعارة الطائر للذل استعارة محسوس لمعقول ، فالعمل والذل لا يدركان بالحواس ، والطائر يدرك بالحواس.

ويقول تعالى:

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الإسراء/ ٦٤).

في الآية استعارة تمثيلية ، والاستعارة التمثيلية "تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي، بحيث يكون المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من متعدد"(٢) ، فالمشبه حال الشيطان في تسلطه على من يغويه ، والمشبه به حال فارس مغوار وقع على قوم فصوت بهم صوتًا يستفزهم (٣) ، فاستعير التركيب الدال على المشبه به "وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ " للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فهذه استعارة محسوس لمعقول ، تقرب للذهن صورة تسلط الشيطان على الإنسان .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ،مادة جنح.

(٢) جواهر البلاغة ٢٧٥.

(٣) انظر الكشاف ٣: ٥٣١ ، روح المعاني ١٥: ١١٢

ويقول تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء/ ٧٠).

الاستعارة في الحرف "في" وهي تصريحية تبعية، حيث "إنها تقع في الحروف كما تقع في الأفعال والصفات المشتقة منها"(١) ، حقيقة الكلام حملناهم على البر والبحر، وعبر بفي بدلاً من على؛ لأن على تشعر بالاستعلاء فقط ، وفي تشعر بالاستقرار والتمكن ، وتؤذن بالمعنيين فاستعمالها أبلغ لجمعها بين المعنيين(٢).

ويقول تعالى:

﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾(الإسراء/ ٧١).

الاستعارة واقعة في كلمة إمامهم ، شبه الكتاب بالإمام ، فاستعير لفظ المشبه به وهو الإمام الذي يتقدم صفوف المصلين ، للمشبه وهو الكتاب الذي يتقدم الإنسان ويرافقه يوم القيامة ، فالاستعارة تصريحية (٣)، حيث حُذف المشبه وذُكر المشبه به.

وفي الآية استعارة تمثيلية في "وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً" ، فهذا مثل يُضرب في القلة ، فالمشبه حال الثواب الذي لا ينقص أدنى شيء ، والمشبه به حال النواة التي لا ينقص منها شيء ولو الخيط الذي في شقها(٤) ، فهذه الاستعارة تبرزالمعنى وتؤكده في النفس.

---

(١) مفتاح العلوم : ٤٨٩

(٢) انظر:القرآن والصورة البيانية ١٩٤.

(٣) انظر: صفوة التفاسير ٧: ٧٣.

(٤)انظر: صفوة التفاسير ٧: ٧٣.

يقول تعالى:﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ (الإسراء/ ٧٢)

الاستعارة واقعة في أعمى ، فشبه الذي لا يهتدي إلى الحق ففقد البصيرة بفاقد البصر، بجامع الآفة والضررعلى سبيل الاستعارة التصريحية ، فاستعار المشبه به ليدل على المشبه ، فهذه استعارة معقول لمحسوس فيه إبراز للمعنى، ليقرب من الذهن.

ويقول تعالى:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(الإسراء/ ٣٦) يبدو أن الاستعارة في كل من السمع والبصر والفؤاد ، "فأُنزِلت منزلة العقلاء ، فهي مسؤولة عن أفعالها شاهدة على أصحابها" [١] فشبه كلاً منها بإنسان يُسأل عن أفعاله ، بجامع العقل والاستنطاق، فحذف الإنسان وأبقى شيئًا من لوازمه ، وهي المسؤولية ، فالاستعارة مكنية.

ويقول تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾(الإسراء/ ٤٦).

في الآية استعارة تمثيلية في "وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ" ، فشُبه حال من أعرضوا عن الذكر، والإيمان بالله ، وأصروا على مخالفة ما جاء به الرسول بحال من جُعل على قلبه أكنة، أي أغطية فلا يفقه ما يقال له ولا يفهمه([٢])، فاستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه، وهذه الصورة تمثل الغاية في الإعراض عن الإيمان والصدّ عنه.

---

(١) روح المعاني ١٥: ٧٤.

(٢) انظر البيان في ضوء أساليب القرآن ١٩٠.

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾(الإسراء/ ١٢).

المحو : الطمس ، وأطلق على انعدام النور؛ لأن النور يظهر الأشياء ، والظلمة لا تظهر فيها الأشياء،"فشُبه اختفاء الأشياء بالمحو"[١]، وذلك بجامع عدم الظهور على سبيل الاستعارة التصريحية فحُذف المشبه وهو اختفاء الأشياء وعدم ظهورها ، ودُكر المشبه به محونا المشتق من المحو، فاستعير المشبه به ليدل على المشبه المحذوف.

ويقول تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾(الإسراء/ ٥٦).

"كشف الضر مستعار للإزالة"[٢] ، تبدو الاستعارة تصريحية ، فشُبه إزالة الضر بالكشف ، بجامع الرفع فاستعير المشبه به ، وهو الكشف ، ليدل على المشبه المحذوف، وهو الإزالة.

ويقول تعالى :﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (الحديد/ ١٢).

"في قوله "يُسْعَى" استعارة"[٣]، يبدو أن الاستعارة مكنية حيث شُبه النور بإنسان ، فحُذف المشبه به، وهو الإنسان، وأُبقي شيء من لوازمه ، وهو يسعى ، بجامع الحركة والانتشار، فسعي النور مرتبط بسعي صاحبه.

---

(١) التحرير والتنوير ١٥: ٤٤.

(٢) المصدر نفسه ١٥: ١٣٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧: ٣٨٠.

ويقول تعالى:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء/ ٥٨).

"الكتاب مستعار لعلم الله وسابق تقديره"[١]، فالمشبه محذوف، وهو علم الله ، والمشبه به الكتاب ، بجامع الوجود والثبوت على سبيل الاستعارة التصريحية ، فاستعير الكتاب ليدل على علم الله. وفي"القرية" مجازمرسل علاقته المحلية، يراد بالقرية أهلها، لأن الهلاك والعذاب واقع عليهم.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(الحديد/ ١٠).

"الدرجة مستعار للفضل ؛ لأن الدرجة تستلزم الارتقاء"[٢] ، فتبدو الاستعارة تصريحية ، فالمشبه محذوف، وهو الفضل ، والمشبه به الدرجة ، بجامع الارتقاء ، فمن عَظُم فضله عظمت درجته، فالفضل يرتقي بصاحبه إلى أعلى الدرجات.

ويقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(الحديد/ ٩).

في هذه الآية استعارة تصريحية أصلية في الكلمتين الظلمات والنور، شبه الكفر بالظلمات بجامع عدم الاهتداء ، واستعار اللفظ الدال على المشبه به ، وهو الظلمة للمشبه المحذوف، وهو الكفر، وشبه الإيمان بالنور بجامع الاهتداء ، واستعار لفظ المشبه به وهو النور للمشبه المحذوف، وهو الإيمان، وهذه صورة تبرز كلاً من الكفر والإيمان في

---

(١) المصدر نفسه ١٥: ١٤٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٧: ٣٧٥.

صورتين متضادتين في موضع واحد ، فتطمئن النفس بنور الإيمان الذي غمر كيانها بعد هذا الانتقال من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ويقول تعالى:

﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ (الحديد/ ١١).

في هذه الآية نوعان من الاستعارة في الفعل "يُقْرِضُ" استعارة تصريحية تبعية ، وفي مجموع الجملة استعارة تمثيلية[١] ، الاستعارة الأولى واقعة في يقرض، حيث شبه الإنفاق في سبيل الله بالقرض، بجامع النفع واستعير اللفظ الدال على المشبه به وهو القرض للمشبه وهو الإنفاق ، واشتق من القرض يقرض.

والاستعارة الثانية في تركيب الجملة، وهي استعارة تمثيلية ، فقد شُبه حال من ينفق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فيثاب بمضاعفة الأجر بحال من يقرض ربّه قرضًا واجب الوفاء ، فهذه صورة تبرز معنى الإنفاق في سبيل الله وتحث عليه وترغب فيه.

وتكررت الصورة في قوله تعالى :

﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ (الحديد/ ١٨).

﴿**إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ**﴾ (التغابن/ ١٧).

صورة تكررت فيها الاستعارة ، التي تصورالإنفاق في سبيل الله بالقرض الحسن، مما يدل على الحث على الإنفاق والترغيب فيه ، وعِظم أجره عند الله .

---

(١) انظر روح المعاني ٣: ٤٣٩ ، محاسن التأويل ٥٦٨٠ .

ويقول تعالى:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾(الحديد/ ١٣).

"انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ" استعارة حالة بحالة، إذا قرئت "أنظرونا" أي أمهلونا([1]) ، حيث شُبّه حال المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين الاتئاد والتأني ليقتبسوا من نورهم ، بحال المدين يطلب من الدائن أن يعطيه مهلة لسداد دينه ،" فاستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية ، فهذه صورة تدل على حالة عجز المنافقين واستحالة الالتحاق بالمؤمنين في ما أحرزوا من أجر وثواب.

وهناك استعارة أخرى واقعة في "نورًا "، فشُبه العمل الصالح بالنور بجامع الاهتداء على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، فاستُعير لفظ المشبه به ، وهو نور ليدل على المشبه ، وهوالعمل الصالح ، فالأعمال الصالحة نوريستضاء به يوم القيامة ، وربما تنطوي هذه الصورة على ترغيب في الإقبال على الأعمال الصالحة ، وترهيب من الإعراض عنها.

وفي كلمة "نقتبس" استعارة فيجوز أن يستعار الاقتباس لانتفاع أحد بضوء آخر، لأنه يشبه الاقتباس في الانتفاع بالضوء([2]) ، فشُبه الانتفاع بضوء المؤمنين باقتباس الشعلة ، فاستعير المشبه به ، وهو الاقتباس المشتق من الفعل نقتبس ليدل على المشبه، وهو الانتفاع ، فالاستعارة تصريحية .

---

(١) روح المعاني ٢٧ : ١٧٦.

(٢) انظر:التحرير والتنوير ٢٧: ٣٨٢.

ويقول تعالى:

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الحديد/ ١٧).

الاستعارة تصريحية في الكلمتين "يُحْيِي و مَوْتِهَا"، فشبه نمو النبات وازدهاره في الأرض بالإحياء بجامع الحياة ، حيث صرح بالمشبه به وهو الإحياء المشتق من يحيي، واستعير ليدل على المشبه، وهو النمو ، وشُبّه يبس الأرض وجفافها بالموت، بجامع الخمود والسكون ، حيث صرح بالمشبه به، وهو الموت ، واستعير ليدل على المشبه، وهو اليبس والجفاف(1).

أمّا إذا أُجريت الاستعارة في كلمة الأرض فهي مكنية ، حيث تُشبّه الأرض بكائن حي يحيى ويموت فأطلق المشبه " الأرض" وحُذف المشبه به وأُبقي شيء من لوازمه "يحيى وموت" ، وهي صورة يتجلى فيها بوضوح الفرق بين الحياة والموت.

ويقول تعالى:

﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (الحديد/ ٢١).

الاستعارة تصريحية في "سَابِقُوا"، فقد حذف المشبه وهو المنافسة، وصرح بالمشبه به وهوالمسابقة بجامع الوصول إلى الهدف، فهذا مشهد يصور المتسابقين إلى هدف نبيل نهايته الجنة.

---

(١) انظر: القرآن والصورة البيانية ٢٠١، والبلاغة فنونها وأفنانها ١٨٧.

ويقول تعالى:

﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر/ ٧).

"الإيتاء مستعار لتبليغ الأمر ، جَعل تشريعه وتبليغه كإيتاء شيء باليد"(١) ، فالاستعارة تصريحية، فشُبه تبليغ الأمر بالإيتاء ، فاستعير الإيتاء وهو المشبه به ليدل على التبليغ، وهو المشبه بجامع القبول، فما أمر به الرسولﷺ أو نهى عنه يؤخذ به ، فهذا تأكيد للمعنى والقبول به.

ويقول تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر/ ٩).

"التبوؤ:النزول في المكان وبالنسبة للإيمان جعله مستقرًا وموطنًا على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية"(٢)، فالاستعارة واقعة في كلمة الإيمان، فشبه الإيمان بالمنزل والموطن بجامع الاستقرار، وحُذف المشبه به وأُبقي شيء من لوازمه ، وهو "تَبَوَّؤُوا" على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية ، والتخييلية :" أن يثبت للمشبه أمر يختص بالمشبه به" (٣) ، فأثبت للإيمان التبوؤ ، فهذه الصورة تبرز معنى الإيمان الذي أضحى موطنًا ومستقرًا لقلوبهم المطمئنة به.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨: ٨٦.

(٢) روح المعاني ٢٨: ٥١.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٣٤.

"وقيل إن الإيمان مجاز مرسل عن المدينة سُمي محل ظهور الشيء باسمه مبالغة"(١) ، فالمدينة سميت بالإيمان؛ لأنها مكان ظهور الإيمان، وربما عطف الإيمان على الدار يوحي بهذا النوع من المجاز، ويبدو أن الاستعارة أظهر وأبلغ في الدلالة على عمق الإيمان الذي هو مستقرهم وموطنهم.

ويقول تعالى:

﴿ **كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (الحشر/ ١٥).

الاستعارة في كلمة " ذاقوا "، وهي تصريحية تبعية، فشُبّه وقوع الوبال بذوق الطعام، فاستعير المشبه به وهو ذوق المشتق من ذاقوا ليدل على المشبه ، وهو وقوع الوبال، والوبال "الأمر الذي يُخشى ضرره"(٢) ، فقد وقع الضرر من عذاب وقتل وخزي على الكفار في الدنيا ، فتذوقوه تذوق الطعام ، مما يدل على شدة العذاب الذي وقع بهم. فالاستعارة تصريحية تبعية .

ويمكن إجراء الاستعارة في وبال حيث يُشبه الوبال " الضرر" بالطعام ، فذكر المشبه، وهو الوبال وحُذِف المشبه به، وهو الطعام ، وأُبقى شيء من لوازمه "ذاقوا" ، على سبيل الاستعارة المكنية ، وهذا تصوير تبرز مرارة العذاب الذي لحق بهم ، ولا يمكن الإحساس بمرارة العذاب إلا بحاسة التذوق ، وتتكرر الصورة نفسها في قوله تعالى:

﴿**أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ (التغابن/ ٥).

الاستعارة في كلمة " ذاقوا" جاءت في سياق توبيخ الكفار الذين لم يتعظوا بما ذاقت الأمم السابقة من العذاب، بعد ما ذكرهم بما حل بالأمم السابقة الكافرة من وبال .

---

(١) روح المعاني ٢٨: ٥٢

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة وبل .

ويقول تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر/ ٢١).

الاستعارة واقعة في "جبل" ، فشُبه الجبل بالإنسان بجامع التأثر بالقرآن، فالإنسان يخشع قلبه، والجبل يتصدع لو نزل عليه القرآن، وحذف المشبه به ، وأُبقي من لوازمه "خاشعاً" على سبيل الاستعارة المكنية ، فهذه صورة تؤكد عظم شأن القرآن، حيث يخشع الجبل متصدعًا ، وهو مضرب المثل في القسوة والصلابة.

ويقول تعالى:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (الصف/ ٨).

في الآية استعارة تصريحية أصلية في " نور الله"، ونور الله دينه أو الإسلام (١) ، فنورالله والإسلام شيء واحد ، كلاهما نور لهداية البشرية إلى الرشد والحق ، فشبه دين الله بالنور بجامع الاهتداء ، فاستُعير المشبه به، وهو دين الله أوالإسلام ، ليدل على المشبه، وهو النور، وهي استعارة معقول لمحسوس ، تؤكد عظم دين الله وشرعه الذي يسطع بنور الحق.

وفي التركيب "يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ" استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال الظالمين الذين يجتهدون في إبطال الحق بحال من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها (٢) ، صورة يعلو فيها الحق، وينتشر دين الله ، وتُطفأ اجتهادات الظالمين في إبطال دين الله.

---

(١) انظر الكشاف ٦: ١٠٦ ، روح المعاني ٢٨: ٨٨.

(٢) المصدران نفسهما.

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الصف/ ١٠).

فُسرت التجارة بالإيمان والجهاد في سبيل الله ، ودليل ذلك قوله تعالى في الآية التي تليها: **﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**(الصف/ ١١) ، "وكما أن في التجارة الربح والخسران، فكذلك في هذا(تجارة الإيمان مع الله)، فمن آمن وعمل صالحًا فله الأجر والربح الوافر، واليسار المبين ، ومن أعرض عن العمل الصالح فله التحسر، والخسران المبين"[١]، ففي هذه التجارة تأكيد الربح والخسران ، أمّا الربح فيتأكد وقوعه لمن آمن بالله ورسوله وجاهد في سبيله بماله ونفسه ، ويتأكد الخسران المبين بالمقابل لمن أعرض عن الإيمان والعمل الصالح ، وبناءً على ذلك فالاستعارة واقعة في كلمة " تجارة "، فشُبه الإيمان بالتجارة بجامع النفع على سبيل الاستعارة التصريحية ، فاستعير المشبه به ، وهو التجارة للمشبه، وهو الإيمان، فهذه صورة تبرزعظم هذه التجارة الرابحة وقيمتها مع الله عزّ وجل.

ويقول تعالى:

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (التغابن/ ٨).

في الآية استعارة واقعة في كلمة" النور" الذي هو القرآن، فإنه يُهتدى به في الشُبُهات كما يُهتدى بالنور في الظلمات[٢] ، فالمشبه القرآن ، والمشبه به النور، فاستعير المشبه به للمشبه ، بجامع الاهتداء على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، صورة تبرز كل كلمة في القرآن لتكون شعاع نور يبدد ظلمة الكفر والضلال.

---

(١) التفسير الكبير٢٩ :٣١٧.

(٢) التفسير الكبير ٣٠ : ٢٤

ويقول تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (التغابن/ ١٢)

"التولي مستعار للعصيان وعدم قبول دعوة الرسولﷺ"(١)، الاستعارة تصريحية ، فشُبه عصيان الرسولﷺ بالتولي عنه ، فاستعير التولي ، وهو المشبه به ليدل على المشبه، وهو العصيان بجامع الانصراف، وهذا تعبير عن مبالغة الكفار في مخالفة الرسولﷺ.

ومما تقدم يمكن ملاحظة ما يلي:

- الاستعارة تعبير فني، فيه إيحاءات تصور المعنى وتمكنه من النفس ، بالإضافة إلى ما تثيره من أحاسيس ومشاعر في النفس.
- عناصر الاستعارة مستمدة من البيئة ، نحو استعارة الطائر في سورة الإسراء ليدل على العمل مرة وعلى الذل مرة أخرى ، ففي كل صورة إيحاء بمعنى مختلف ، ففي دلالته على العمل إيحاء بملازمة العمل صاحب، وفي الصورة الثانية إيحاء بالذل .
- تكررت استعارة لفظة "النور" ليدل على الإيمان في الآية التاسعة من سورة الحديد، وعلى العمل الصالح في الآية الثالثة عشرة من السورة نفسها ، وفي سورة الصف استعيرت لتدل عل الإسلام في الآية الثامنة ، وفي سورة التغابن استعيرت لتدل على القرآن في الآية الثامنة ، وكلها متصلة بالمعنى، تدل عليه لا تناقض بينها، فالإيمان والعمل الصالح والإسلام والقرآن كلها نور ينشر شعاعًا يبدد ظلمات الكفر في حياة الإنسان.
- تكررالاستعارة نفسها في غير موضع ، فقد استعير القرض ليدل على الإنفاق في سبيل الله في سورة الحديد في الآيتين "١١،١٨" ، وفي سورة التغابن آية ١٧"، ففي الآيات الثلاث يُسبَق ذكر القرض الحسن بالحث على الإنفاق والترغيب فيه، مما يعني أن السياق

(١) التحرير والتنوير ٢٨: ٢٨١.

يقتضي هذه الصورة التي ارتبطت بالإنفاق، فكانت الصورة واحدة ؛ لأن الموضوع واحد، وفي ظني أن في تكرار هذه الصورة إبقاء عليها في ذهن مَنْ تمثلها ، فيبقى الإنفاق مرتبطًا بصورة القرض الحسن، الذي يدركه الإنسان حق الإدراك في معاملاته المادية ، فيعلم الأجر والثواب الذي ينتظره إن هو أنفق من ماله في سبيل الله ، فهذا تكرار يدل على أثر الاستعارة في تأكيد معنى هذا الإنفاق في سبيل الله.

٤- الكناية :

يقال لغة: كنيت عن الأمر، وكَنوت إذا ورّيت عنه بغيره ، وأن تتكلم بالشيء وتريد غيره ([١]). والكناية اصطلاحًا:" ترك التصريح بذكر الشيء إلى ذكرما يلزمه ، لينتقل من المذكورإلى المتروك، كما تقول فلان طويل النجاد، لينتقل منه إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة"([٢]).

وفي تعريف آخر: "قول أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذٍ "([٣]).

ومن أقسام الكناية التعريض ، والتعريض : "الدلالة على المعنى عن طريق الفهم ، المعنى يُفهم من عُرض اللفظ"([٤]).

ومن الكنايات التي وردت في المسبّحات ما يأتي:

يقول تعالى:

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾

(الإسراء/ ٢٤).

الكناية في قوله :" وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ" كناية عن التواضع ولين الجانب ، فالطائر يخفض جناحه عندما ينزل إلى الأرض ، والنزول يعني التواضع وعدم الترفع ([٥]) ، فهذه

(١) لسان العرب مادة كني.

(٢) مفتاح العلوم ٥١٢.

(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ٢٤١ ، وانظر جواهر البلاغة ٢٨٦

(٤) البرهان في علوم القرآن ٢: ٢١١ ، وانظر: جواهر البلاغة :٢٨٩ ، والبلاغة فنونها وأفنانها ٢: ٢٥٩

(٥) انظر:القرآن والصورة البيانية ٢٢٥.

كناية عن صفة التواضع ، وفي ذلك تصوير المعنى المعقول الذي لايدرك بالحواس ، إلى معنى محسوس يمكن إدراكه بالحواس ، فصورة الطير خافضًا جناحه حانيًا على فراخه توحي بالذل والتواضع.

ويقول تعالى:

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(الإسراء/ ٢٩).

في الآية كناية عن صفة البخل، فغَلّ اليد إلى العنق كناية عن البخل ، وفي بسطها كناية عن الإسراف ففي ذلك كناية عن الاعتدال في الإنفاق ، فهيئة الإنسان ويده مغلولة إلى عنقه،أو مبسوطة لا تمسك شيئاً صورة منفرة لهذه الصفة المذمومة ([١]).

وهناك من رأى أن الاستعارة أبلغ من الكناية ؛ لأنه جعل المنع بمنزلة غَل اليدين إلى العنق([٢])، فيرى القاسمي أن في الآية استعارتين تمثيليتين ، فشبه في الأولى حال الشحيح في منعه بحال من غلت يده إلى عنقه ، وفي الثانية شبه حال المفرط في سرفه بحال من بسط كفه فلا تحفظ شيئًا([٣]) ، يمكن أن تكون هذه الاستعارة محتملة ، وبإمعان النظر في مجمل الآية نجد أن الكناية ظاهرة في نظم ألفاظها وترابطها ، فهذه الألفاظ يُكنى بها عن الاعتدال في الإنفاق.

---

(١) انظر البلاغة فنونها وأفنانها٢: ٢٦، الصورة الأدبية في القرآن الكريم ٦٩، البيان في ضوء أساليب القرآن:٢٥٦

(٢) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم ٩٣ ، البرهان في علوم القرآن ٣: ٤٣٩ ، القرآن والصورة البيانية ٢٩٠.

(٣) محاسن التأويل١٠: ٣٩٢٣.

ويقول تعالى:

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (لإسراء/ ٥١) .

ينغض المشركون رؤوسهم، أي يحركونها مستبعدين منكرين إعادتهم إلى الحياة بعد موتهم ، ففي حركة الرأس كناية عن الكِبْر والغَطْرَسة ، فهذه الآية تعرض المعنى بصورة محسوسة تبرز المعنى بوضوح(١)، فالكناية في قوله "فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ" فهذا القول يلزمه معنى الكِبْر والغَطْرَسة، ويُلمَس في الحركة المحسوسة التي تدل عليه وتشير إليه ، وتؤكد إنكار البعث.

يقول تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء/ ٤٦).

جاء في سياق هذه الآية أن الله " جعل في قلوب المشركين ما يشغلهم عن فهم القرآن، وفي آذانهم ما يمنع سماعه وتدبره ، إذا سمعوا آية فيها ذكر الله ، وذم الشرك بالله ، وَلَّوا نفورًا وتركوا المجلس"(٢)، فلعله في "أكنّة" وهي ما يُغطي الشيء ، وفي "وَقْرًا" وهو الصمم كناية عن انشغالهم عن سماع القرآن وفهمه ، فهم يسمعون ، لكنهم لا يفقهون ولا يتدبرون القرآن، وفي قوله" وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا" كناية عن الهروب عندما يقرع أسماعهم توحيد الله عزّ وجلّ ، فهذه صورة تبرز إعراضهم وإدارة ظهورهم عندما يُذكر الله وحده في حركة معينة أبلغ من القول.

---

(١) انظر البيان في ضوء أساليب القرآن ٢٨٠

(٢) التفسير الكبير ٢٠: ٢٢٤.

يقول تعالى :

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ (الإسراء/ ٨٣).

نأى بجانبه" لَوى عِطْفه عن طاعتنا وولاها ظهره"(١) ، وهنا أيضًا يعرض الإنسان ويدير ظهره عن طاعة الله في حال الإنعام عليه بالسعة والصحة وغيرهما من النعم ، فالنأي بالجانب كناية عن صفة الاستكبار، فهذه صورة تجسد معنى الاستكبار عن طاعة الله في حركة معينة تفوق التعبير بالقول.

يقول تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء/ ٨٨).

"هذه الآية مُفحِمة للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن الكريم"(٢) ، فتبدو نبرة التحدي واضحة في ألفاظها ، فيلمح في مجمل الآية وتنوع أساليبها بين الأمر والقسم والنفي الكناية عن التحدي ، فهذا تحدٍ للإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، في إعجاز أسلوبه ومضمونه ، والله يعلم أنهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلا.

ويقول تعالى:

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء/ ١٠٠).

لأمسكتم أي لاتصفتم بالإمساك ، أي البخل ، يقال فلان ممسك أي بخيل ، ولا يُراد أنه ممسك شيئًا معينًا (٣)، فهذا يعني أنّ أمسكتم كناية عن البخل،" وأمسكت عنه منعته، وكُني عن البخل بالإمساك"(٤)، فالكناية عن البخل واضحة في الآية ، فالممسك يمنع عطاءه عن

---

(١) روح المعاني ١٥: ١٤٧

(٢) التحرير والتنوير ١٥: ٢٠٣.

(٣) التحرير والتنوير ١٥: ٢٢٣.

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة مسك.

الناس، وفي هذا بيان لعظمة الله وتميّزه عن المخلوق في عدة صفات: الأولى أنه وحده يملك خزائن الرحمة ، والثانية أنه يفتح خزائنه فينفق منها كيف يشاء، والثالثة أن الإنسان يبخل حين يملك الخزائن ، والرابعة – وهي متفرعة عن سابقتها- أنه يتصف بالبخل والتقتير ويتميز به.

ويقول تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء/ ٧٦)

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ (الإسراء/ ١٠٣).

"الاستفزاز: الاستخفاف ، وهو كناية عن الإبعاد"[١] ، في الآية الأولى استفزاز المشركين الرسول لإخراجه من أرض مكة ، وفي الآية الثانية استفزاز فرعون بني إسرائيل لإخراجهم من أرض مصر، وفي لفظة الاستفزاز كثير من الإثارة والتحدي والتعدي ، فليس هو إبعاداً آمنًا ، بل هو إخراج تحفه المخاطر، ويسيطر عليه كثير من العدوان والغرور.

يقول تعالى:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحديد/ ١).

في قوله "سبّح" تعريض بالمشركين الذين أهملوا أهم تسبيح وهو تنزيهه عن النِّد والشرك"[٢] ، ويبدو هذا التعريض الذي هو قسم من أقسام الكناية حيث يستدل على المعنى المكنى عنه عن طريق الفهم، فلعل المعنى المفهوم من آيات الاستهلال في سور

(١) التحرير والتنوير ١٥: ٢٢٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧: ٣٥٧.

المسبّحات حثّ من لا يسبحون الله على التسبيح ، "فكأنه يقال سبحوا الله كما يسبح له ما في السموات والأرض"(١)، فكل الموجودات تسبح بحمد الله.

ويقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(الحديد/ ٤).

المعية في قوله " وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ" كناية عن العلم بجميع أحوالهم(٢) ، قيل المعية مجاز عن العلم بعلاقة السببية(٣) ، أي أن المعية سبب في العلم ، وهذا محتمل ، ولعل الكناية أرجح من المجاز؛ فيستدل من المعية على علم الله الواسع ، فهو يعلم ما يلج في الأرض ويخرج منها ، ويحيط بأعمال البشر، فهو بصير بما يعملون ، وعالم بأحوالهم ، وفي" اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ" كناية عن الحكم السيطرة ، فجلوسه على العرش لايعرف له هيئة ولا مثيل.

ويقول تعالى:

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(الحديد/ ١٤).

" أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ" استفهام تقريري استعمل كناية عن طلب المنافقين اللحاق بالمؤمنين، والانضمام إليهم كما كانوا معهم في الدنيا يعملون أعمال المسلمين في الظاهر، لكنهم يضمرون الكفر(٤) ، فالمعنى الذي يُفهم من هذا الاستفهام طلب المنافقين اللحاق

---

(١) المصدر نفسه ٢٨: ٦٤.

(٢) انظر التحرير والتنوير ٢٧: ٣٦٤ ، والقرآن والصورة البيانية ٢٢٤.

(٣) روح المعاني ٢٧: ١٦٨.

(٤) انظر التحرير والتنوير ٢٧: ٣٨٥.

بالمؤمنين في نيل ثوابهم، وفي " وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ" كناية عن طول الأمل في الحياة ، وامتداد العمر، حتى جاءهم الموت.

ويقول تعالى:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (الحديد/ ١٥).

"كُنِّي بنفي أخذ الفدية عن تحقق جزائهم على الكفر"(١) ، فإن انتفاء أخذ الفدية من الكافرين لإنقاذ أنفسهم من عذاب النار يؤكد تحقق جزائهم ، فالنار مولاهم ومأواهم ، فالمعنى الذي يلازم عدم أخذ الفدية تحقق مصيرهم إلى النار جزاء كفرهم.

ويقول تعالى:

﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد/ ٢٩) .

في قوله "وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ" كناية عن انتفاء الفضل عن اليهود الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ "(٢) ، فالفضل بيد الله وليس بأيدي أهل الكتاب ، الذين لا يقدرون على شيء ، فهو المتصرف بما يشاء سبحانه ، يتفضل على من يشاء من عباده.

ويقول تعالى:

﴿وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر/ ٦).

محور الحديث في الآية الفيء ، الذي غنمه الرسول من أموال بني النضير، لم يكن في حرب أسرعوا إليها فركبوا الخيول والإبل ، فقد ساق الله أموال بني النضير للمسلمين دون قتال، وفي قوله:" فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ" كناية عن أنهم لم ينالوا الفيء

(١) المصدر نفسه ٢٧: ٣٨٨

(٢) التحريروالتنوير ٢٧: ٤٣١.

بالقتال[1] ، فالمعنى المُكنّى عنه عدم القتال، وإن ما غنمه المسلمون من أموال بني النضير كان دون مشقة أوتعب.

ويقول تعالى:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (الحشر/ ١٢).

في هذه الآية نفي لما وعد به المنافقون اليهود بالخروج معهم ونصرتهم ؛ لأن اليهود والمنافقين منهزمون، ففي قوله: " لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ" كناية عن انهزام اليهود والنيل منهم[2] ، فتولية الدبر كناية عن الفرار، فمن يفر يولي دبره لخصمه ، منهزمًا فارًا من أرض المعركة.

ويقول تعالى:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾(الحشر/ ١٤).

في الآية وصف لقتال اليهود، الذين لا يقاتلون إلا في قرى محصنة بالحصون والمعاقل ، أو من وراء جدر خلف الأسوار "كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة" [3] ، وهم من جُبْنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام فيقاتلون من وراء الجدر لدفع المسلمين لا لمهاجمتهم[4] ، فيُكنّى في قوله: " لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ" عن الجُبن والخوف من مواجهة المقاتلين ثم الانهزام.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ٢٨ : ٧٩.

(٢) انظر: البيان في ضوء أساليب القرآن : ٢٥٩

(٣) التحرير والتنوير ٢٨: ١٠٥.

(٤) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٣: ٤٧٦.

يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّـهَ خَـبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ﴾(الحشر/١٨).

في الغد كناية عن القيامة لقرب مجيئها(١) "الغد أطلق على الزمن المستقبل مجازًا لتقريب الزمن المستقبل ؛ لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم"(٢) ، فالمجاز مرسل لقريب الزمن، فهذه الصورة البيانية وإن اختلفت تسمية البيان فيها إلا أن غايتها إبراز المعنى وتأكيده في النفس ، فقرب يوم القيامة مؤكد في نفس كل مؤمن بالله ، فالآية تضمنت عملاً صالحًا بين تقوتين ، والعمل الصالح هو تقوى في حد ذاته، لذا بات عمل المؤمن كله تقوى.

ويمكن ملاحظة الاستعارة التصريحية التبعية في " قَدَّمَتْ" ، فالتقديم مستعار للعمل الذي يُعمل لتحصيل فائدته في زمن آتٍ ، فالمشبه الانتفاع بالعمل في المستقبل ، والمشبه به تقديم من يحل في المنزل قبل ورود السائرين إليه ليصلح لهم مايصلح أمرهم(٣) ، فهذه صورة تبرز صورة العمل الذي ينتظر صاحبه في الآخرة لينتفع به.

---

(١) انظر:صفوة التفاسير ١٨: ٣٠

(٢) التحرير والتنوير ٢٨: ١١١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٨: ١١١

ويقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(الصف/ ٢-٣).

نادى الله المؤمنين بقوله "الَّذِينَ آمَنُوا" تعريضًا لهم بأن المؤمن يجب أن توافق أقواله أفعاله ، وفي ذلك كناية عن لومهم وتحذيرهم من الوقوع في هذا الفعل المذموم(١)، فالكناية عن اللوم في الاستفهام "لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ" ، وأمّا التحذير في قوله" كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" ، فمقت الله يجب الحذر منه ، وفي تقولون مالا تفعلون كناية عن طلب الوفاء بالعهد فعلى المؤمن أن يُتبع قوله فعلاً، ويفي بعهده.

ويقول تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف/ ٤).

هذه الآية تصف المقاتلين في سبيل الله ، فهم بنيان متماسك في ثباتهم ،" والصف كناية عن الانتظام والقتال بتدبر"(٢) ، فكُنِّي بكلمة الصف عن الانتظام ، ولعل انتظام الصفوف في القتال لا يثبت على حال إذا احتدمت المعركة ، فيصبح المقاتلون بين كرّ وفرّ، ويخرجون عن الصفوف، مما يُضعف أن يُكنَى بالصف عن الانتظام ، فبات التعبير عن الصف كناية عن التماسك والتلاحم بين أفراد المقاتلين، وتوجههم إلى هدف واحد مشترك.

---

(١) انظر: المصدر نفسه ٢٨: ١٧٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨: ١٧٦.

ويقول تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ۝ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ (الجمعة/ ٢-٣).

المعنى في قوله" وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ" أن آخرين يتصلون بالمسلمين الأولين، وهذا إيماء إلى أنهم يصيرون منهم ، وفي هذا رمز إلى أنهم يتعربون ؛ لفهم الدين والنطق بالقرآن"[١] ، فمن يدخل الإسلام يلتحق بأهله ويصير مثل المسلمين ، ويتعلم لغة العرب التي نزل بها القرآن؛ لفهم دين الإسلام ، فهذا الإيماء والرمز كناية عن انتشار الإسلام وعموم رسالته، فانتشار الإسلام بين مختلف الأمم يثبت المعنى المُكَنّى عنه.

ويقول تعالى:

﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّـاسِ فَتَمَنَّـوُا الْمَـوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾(الجمعة/ ٦).

"الأمر " فَتَمَنَّوُا "مستعمل في التعجيز كناية عن التكذيب"[٢]، والله يعلم أن إدعاء اليهود بأنهم أولياؤه زعم وكذب، فهم لا يتمنون الموت لقوله تعالى:﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم﴾(الجمعة/ ٧)، فكُنّي بالأمر عن تكذيبهم في ما زعموا، فهم غير صادقين .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨: ٢١٢.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨: ٢١٦

ويقول تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(التغابن/ ١١).

قيل في سبب نزول الآية إن الكفار قالوا:" لو كان ما عليه المسلمون حقًّا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا"(١) ، فتبين الآية أن ما من مصيبة تنزل بالإنسان إلا بعلم الله وقضائه ، ففي قوله" وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ" إيماء بالثبات والصبر عند حلول المصائب ، وفي ذلك كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب ، فكل ما يصيب الإنسان بعلم الله وتقديره(٢)، فمن يؤمن بالله وقضائه يصبر، وما جزاء الصابرين إلا الثواب.

ويقول تعالى:

﴿ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ۞ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾(الأعلى/ ٩-١١).

في الآية أمر بأن يعظ محمدﷺ قومه بالقرآن ، فمن يخاف الله ينتفع بهذه الموعظة ، أمّا الكافر الشقي بكفره فيرفضها ويتباعد عنها (٣)، فالتجنب : التباعد ، ويتجنبها كناية عن طلب البعد ، فهو يتباعد عن الذكرى ويرفض الموعظة(٤) ، فكُنِّي بيتجنبها عن طلب البعد.

يقول تعالى:

﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ (الأعلى/ ١٢-١٣).

في قوله " لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا" كناية عن نفي الخلاص من العذاب ، بناءً على أن لازم الإحراق الهلاك ، ولازم الحياة عدم الهلاك"(٥) ، فهذا يعني الاستمرار الدائم في العذاب وعدم الخلاص منه. هذه نماذج من الكناية في سور المسبحات، تعد من مظاهر البلاغة ، وأي كناية أبلغ من كنايات القرآن الكريم التي تقرب المعنى فتضعه في صور المحسوس

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨: ١٠٩.

(٢) انظر:التحرير والتنوير ٢٨: ٢٨٠.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٧.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ٣٠: ٢٨٥.

(٥) انظر :المصدرنفسه ٣٠: ٢٨٧

الذي يمكن فهمه ، فيدركه العقل ويتأكد معناه في النفس ، ويرى عبد القاهر الجرجاني أن الكناية عن المعنى لاتعني زيادة في ذاته بل هي زيادة في إثباته ، فجعلته أبلغ وآكد وأشد[1] ، ففي الكناية إثبات للمعنى بالدليل عليه من خلال الكناية عنه.

ومن خلال ما تقدم في الجدول والنماذج السابقة يمكن ملاحظة ما يلي :

- تنوع الصور البيانية في السورة الواحدة بين التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية ، وفي ذلك تفنن في تصوير المعاني ، وهي غاية هذا التنوع والتفنن، حيث يسهل إدراكها وتقبلها.

- كثرة الصور البيانية في سورة الإسراء ، ربما يعود ذلك إلى طول السورة التي بلغ عدد آياتها مئة وإحدى عشرة آية ، وتنوع موضوعاتها وكثرتها، فكان المجال واسعًا للصور البيانية ، وربما كان الكثير من المعاني يحتاج إلى أدلة محسوسة ليلتفت الناس إليها ، وتدركها عقولهم ، نحو تشبيه القرآن بالشفاء ، واستعارة الطائر القابض جناحه للذل ، والكناية عن البخل بيد مقبوضة إلى العنق.

- ندرة الصور البيانية في سورة الأعلى نظرًا لقصرها ، ومحدودية موضوعاتها وطبيعتها لا تحتاج إلى كثير من الصور البيانية ، فدلائل وحدانية الله من الخلق السوي، في قوله تعالى:﴿وَالَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (الأعلى/ ٢) ، والنبات المبهج الذي لا يلبث أن ييبس في قوله تعالى:﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى۞ فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى ﴾(الأعلى/ ٤-٥) صور ظاهرة للعيان لا تخفى على ذوي العقول السليمة.

ويلاحظ قلة الصور البيانية أيضًا في كل من سورة الصف والجمعة ، ولعل موضوعات السورتين التي تقر حقائق عَقَدِية كأداء الصلاة في سورة الجمعة ، والتحريض على الجهاد في سورة الصف لا تستدعي الكثير من الصور البيانية ، فهي حقائق شرعية.

---

(١) انظر دلائل الإعجاز ٧١.

- ارتباط بعض الصور البيانية بمعنى معين ، فالقرض الحسن مستعار للإنفاق في سبيل الله، وبعض الصور ارتبطت بأكثر من معنى، مثل النور المستعار للإيمان والإسلام والأعمال الصالحة والقرآن ، فالنور صورة لكل ما هو مشرق في حياة الإنسان ، ومصدرهداية إلى الطريق الصحيح وكذلك الطائر مستعار للذل مرة والعمل الملازم لصاحبه مرة أخرى.

- تكرار بعض الصور البيانية مثل:

الكناية بالتعريض في الحث على التسبيح في مستهل كل من سورة الحديد ، والحشر، والصف ، والجمعة ، والتغابن من المسبحات .

الكناية بالتولية عن الإعراض والفرار في سورة الإسراء(آية/ ٤٦) ، وفي سورة الحشر (آية/ ١٢).

استعارة " ذاقوا" لتشبيه وقوع العذاب وسوء العاقبة بالطعام الذي يذاق طعمه في سورة الحشر (آية/ ١٥)، وفي سورة التغابن(آية/ ٥).

استعارة القرض للإنفاق في سبيل الله في كل من سورة الحديد (الآية/ ١١، ١٨) و سورة التغابن(آية/ ١٧) .

- انفراد المسبحات بصور مميزة خالدة تجسد المعاني في صور معقولة تدرك بالحواس مثل: تشبيه بني إسرائيل بالحمار الذي يحمل أسفارًا ، ولا يعرف قيمة ما فيها من علوم في سورة الجمعة (آية / ٥) ، فهذه صورة خالدة لكل من يعلم علمًا ولا يعمل به ولا يؤدي أمانة العلم الذي يحمله.

تشبيه المقاتلين في سبيل الله بالبنيان المرصوص في ثباتهم وتراص صفوفهم، في سورة الصف (آية/ ٤) ، فهذه صورة مشهودة بالعيان ترسخ معنى ثبات المقاتلين.

تشبيه سرعة انقضاء الدنيا بمباهجها ومسراتها بسرعة اصفرار زرع مبهج وجفافه، في سورة الحديد (آية/ ٢٠) ، فهذه صورة محسوسة متكررة لا تنقطع ، فهي دائمة التذكير بفَناء الدنيا وزوال نعيمها.

تشبيه الجنة بالسماوات والأرض في عرضها في سورة الحديد(آية/ ٢١) ، فهذه سعة غير محدودة للجنة مهما استطاع العقل أن يتخيل عرض السماوات والأرض، مما يدل على قدرة الله وعِظم ثوابه ، واتساع جنته.

- غلبة صور الاستعارة والكناية على التشبيه ، لأن الاستعارة أبلغ من التشبيه ، فبلاغة الاستعارة في حذف أحد طرفي التشبيه ، "فالغاية من التشبيه إلحاق كامل بناقص ، ولكنها في الاستعارة عبارة عن دعوى الاتحاد بينهما ادعاء أن المشبه عين المشبه به"[١] ، وبلاغة الكناية في إخفاء المعنى ، وهذا من مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم الذي لا تضاهيه بلاغة بشر.

- يمكن أن تتضمن الآية أكثر من صورة بيانية ، مما يدل على قمة البلاغة في التعبير عن المعاني نحو الجمع بين الاستعارة والكناية في قوله تعالى:﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء/ ٢٤)، في الآية استعارة في" جَنَاحَ الذُّلِّ، وفي مجمل الآية كناية عن صفة التواضع.

- البيان بصوره المختلفة من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية بلاغة اتفق عليها أرباب البلاغة ، يقول السكاكي:"اعلم أن أرباب البلاغة ، وأصحاب الصياغة للمعاني مطبقون على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، وأن الاستعارة أقوى من التصريح بالتشبيه ، وأن الكناية أوقع من الإيضاح بالذكر"(٢) ، ففي المجاز مبالغة في المعنى وإيجاز في العبارة ، فهو أبلغ من الحقيقة ، والاستعارة أقوى من التشبيه لأنها تقوم على حذف أحد طرفي التشبيه ، مما

(١) البيان في ضوء أساليب القرآن ٢٤٥.

(٢) مفتاح العلوم: ٥٢٣ ، وانظر الإيضاح في البلاغة ٢٤٩

يجعل الاتحاد بين طرقي التشبيه أقوى منه في التشبيه القائم على وجود طرفي التشبيه، وفي الكناية إثبات للمعنى بالدليل ، فكثرة الرماد دليل الكرم ، وهذا يعني أن الصور البيانية لاتخلو من البلاغة ، وإن اختلفت درجة البلاغة من صورة إلى أخرى في جمال التعبير وروعته ، وإيضاح المعنى وتأكيده ، ويمكن القول إن فصاحة القرآن وبلاغته سرمن أسراره ، فقد تضمن أبلغ صور البيان لفظًا ومعنىً، وستبقى جهود الدارسين محاولات لاكتشاف هذه الأسرار التي لا تنتهي.

وخلاصة القول في خاتمة هذه الدراسة أن المسبِّحات مجموعة سور من القرآن الكريم ، تستهل بمختلف الصيغ التي تحث على التسبيح ، بدءًا من المصدر سبحان ، ومرورًا بصيغة الماضي سبّح ، وصيغة المضارع يُسبّح ، وانتهاءً بصيغة الأمر سبّحْ ، وهذا الاستهلال يتناسب مع أجواء كل سورة منها.

والمسبِّحات تضبط بكسر الباء، حيث لوحظ أن الباء تترك دون ضبط في معظم المصادر، ويحار المرء في ضبطها، فقد ثبت ضبطها بكسر الباء في تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي.

عدد سور المسبّحات سبع سور بناءً على الاستهلال بالتسبيح ، فالمسبِّحات اسم تندرج تحته كل سورة تبدأ بالتسبيح ، فهذا الاسم يوحي بجميع هذه السورة المستهلة بالتسبيح بغض النظر عن صيغة التسبيح.

المسبِّحات مدنية النزول، باستثناء سورة الإسراء، التي لا تخلو من موضوعات القرآن المدني، كذلك سورة الأعلى مكية النزول ، أمّا كل من سورة الحديد، والحشر، والصف، والتغابن، والجمعة فهي مدنية النزول مما جعل موضوعاتها تتشابه.

لسور المسبَّحات أكثر من اسم ، منها ما هو توقيفي، ومنها ما هو مشتق من مضمون السورة ، أمّا ترتيبها فالميل إلى أنه توقيفي ، بدليل الفصل بينها بسور أخرى.

تلتقي سور المسبِّحات في مضامين موحدة الدلالة غالباً ، مثل التسبيح في مستهلها، وتجمعها مضامين أخرى ، مثل الدعوة إلى التوحيد، وتقرير البعث والحساب ، والدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله ، وذكر بني إسرائيل وبيان فسادهم.

كل مضمون من مضامينها المشتركة يشكل موضوعًا مستقلاً بذاته ، تترابط أفكاره ، وتلتقي حول الفكرة الرئيسية ، مما يدل على ترابط موضوعات القرآن واتصالها ، وإن كانت من سور مختلفة.

انفردت كل سورة من المسبحات بفكرة ميزتها عن غيرها، نحو تميُّز سورة الإسراء بطائفة من الآداب الخُلقية والاجتماعية التي تَميّز بها أفراد المجتمع المسلم عن أفراد المجتمعات الأخرى، والغرض من بعث الرسل في سورة الصف، أحكام صلاة الجمعة في سورة الجمعة ، التحذير من فتنة الأولاد في سورة التغابن.

الفاصلة فن تميز به القرآن الكريم ، إن جاز التعبير، فميزته بنكهة فنية خاصة ، تضفي على الأسلوب جزالة وفخامة وحُسْنًا له وقع خاص ، وقوة تأثير في النفس، فهي جزء من الآية تثبت المعنى وتؤكده ، وكثر حضور الفاصلة المختومة بالواو والنون ، أو الياء والنون في سور المسبِّحات الدالة على الجمع ، وعلى الأغلب ترد في الآيات التي تخاطب الجمع ، نحو قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(الحشر/ ١٩).

تنوع القيم والمبادئ في سور المسبِّحات التي ترسخ عقيدة التوحيد والإيمان بالله ، والأخلاق الكريمة ، والآداب الاجتماعية ، والتكافل الاقتصادي في المجتمعات الإسلامية التي يمكن أن تكون أنموذجًا لمجتمعات بشرية فاضلة ،وهي قيم خالدة تصلح لكل زمان ومكان.

تنوع الصور البيانية في سور المسبِّحات بين التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية في السورة الواحدة ، له دلالة فنية على الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، وهي في معظمها مستمدة من البيئة المحيطة بالإنسان، مرتبطة بمشاهداته ، لا تغيب عن ناظره ؛ لأن الغرض منها توضيح المعنى وتمكينه ؛ لسلوك سُبل الهداية والإرشاد.

تكرار بعض الصور البيانية لفظًا ومعنًى في سور المسبِّحات ، فقد جاءت في السياق نفسه نحو تصوير الإنفاق بالقرض الحسن ، والنور صورة مشرقة للعمل الصالح والإيمان والقرآن.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- ابن الأثير ، ضياء الدين ،(١٩٧٣)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر** ، ط٢، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة.
- استيتية ، سمير شريف،(٢٠٠٥)، **اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج** ، ط١، عالم الكتب الحديث ، إربد.
- الألوسي ، شهاب الدين السيد محمود ، (دون تاريخ) ، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، إحياء دار التراث العربي ، بيروت.
- الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن سعيد.

– (١٩٥٧) ، **أسرار العربية** ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، المجمع العلمي العربي ، دمشق.

– **(٢٠٠٢)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين** ، ط١ ، تحقيق جودة مبروك محمد ، مكتبة الخانجي ، القاهرة.

- الأندلسي الغرناطي ، أبو جعفر أحمد بن إبراهيم ، (١٩٨٥) ، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** ، تحقيق محمود كامل أحمد ، دارالنهضة العربية ، بيروت.
- أنيس، إبراهيم ، (دون تاريخ)، **الأصوات اللغوية** ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة.
- الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب ، (١٩٥٤) ، **إعجاز القرآن** ، تحقيق السيد أحمد صقر دار المعارف ، القاهرة.
- البخاري ، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ،(١٩٩٢)، **صحيح البخاري** ، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت.
- البقاعي ، برهان الدين أبو الحسين إبراهيم بن عمر، (١٩٩٥)، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، تحقيق عبد الرزاق غالب المهدي ، دارالكتب العلمية ، بيروت.

• البيهقي ، أحمد بن الحسين ، (٢٠٠٣)، **الجامع لشعب الإيمان** ، ط ١، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرُّشد ، الرياض.
• الترمذي ، محمد بن عيسى بن سورة ، (١٩٧٥)، **سُنَن الترمذي** ، ط٢ ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة.
• الجارم ، علي، وأمين ، مصطفى،(١٩٧٩) ، **البلاغة الواضحة** ، دار المعارف، القاهرة ودار المعارف، بيروت .
• جبر ، أسامة أحمد عبد الله ،(٢٠٠٤)، **سورة الإسراء ، دراسة تحليلية نصية** ، رسالة ماجستير جامعة اليرموك ، إربد.
• الجرجاني ، عبد القاهر بن عبد الرحمن .

- (١٩٨٨)، **أسرار البلاغة في علم البيان** ، ط١، صححه وعلق حواشيه محمد رشيد رضا ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- (٢٠٠٤)، **دلائل الإعجاز** ، ط ٥، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة.

• الجرجاني ، علي بن محمد بن علي الحسين ، (٢٠٠٧)، **التعريفات** ، ط ١، تحقيق نصر الدين تونسي ، القدس للتصدير ، القاهرة .
• ابن جُزيّ الكلبي ، أبو القاسم محمد بن أحمد،(١٩٩٥) ، **التسهيل لعلوم التنزيل**، ط١، ضبطه وصححه وخرّج آياته محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، بيروت.
• ابن جني ، أبو الفتح عثمان ،(١٩٥٧) ، **الخصائص** ، تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة.
• الحسناوي ، محمد ،(٢٠٠٠)، **الفاصلة في القرآن الكريم** ، ط ٢، ، دار عمار ، عمان.
• أبو حيان الأندلسي ، محمد بن يوسف ،(٢٠٠١)، **البحر المحيط** ، ط١، تحقيق زكريا عبد المجيد النوقي وأحمد النجولي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

• حسين ، عبد القادر، (١٩٨٥)، **القرآن والصورة البيانية** ، ط٢ ، عالم الكتب ، بيروت.

• حسين ، مجدي معزوز أحمد ،(٢٠٠٤) ، **سورة الإسراء ، دراسة نحوية دلالية** ، رسالة ماجستير ، جامعة النجاح الوطنية.

• الخالدي ، صلاح عبد الفتاح ،(٢٠٠٠)، **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني** ط١ ، دار عمار، عمان .

• الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن .

- (٢٠٠٣)، **الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبديع** ، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- (٢٠٠٨)، **تلخيص المفتاح في المعاني والبيان والبديع،** ، تحقيق عزت زينهم عبد الوا الواحد ، مكتبة الإيمان ، المنصورة.

• الدارمي ، عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل،(٢٠٠٠) ، **سُنَن الدارمي** ، ط ١، تحقيق حسين سليم أسد، دار المغني ، الرياض.

• الداني الأندلسي ، أبو عمرو عثمان بن سعيد ، (٢٠١٠)، **التحديد في الإتقان والتجويد** ، ط٢، تحقيق غانم قدوري الحَمَد ، دار عمار، عمان.

• الرازي ، فخر الدين ، (١٩٨١)، **التفسير الكبير ومفاتيح الغيب** ، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت.

• الراغب الأصفهاني ، أبوالقاسم الحسين بن محمد ،(دون تاريخ) ، **المفردات في غريب القرآن** مكتبة نزارمصطفى الباز، القاهرة.

• الرماني ، والخطابي ، والجرجاني ، (١٩٧٦) ، **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** ، ط٣ ، تحقيق محمد خلف ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، القاهرة.

• الزباجي ، باسم علي محمد صالح ، (٢٠٠٥) ، **سورة الحديد من أولها إلى الآية الخامسة عشرة دراسة تحليلية** ، رسالة ماجستير ، جامعة الإيمان ، اليمن.

• ابن الزبيرالثقفي ، أحمد بن إبراهيم ، (١٤٢٨هـ)، **البرهان في تناسب سور القرآن** ، ط١، تحقيق سعيد بن جمعة التركي ، دار ابن الجوزي ، الدمام .

• الزجاج ، أبو اسحاق إبراهيم بن السّري،(١٩٨٨)، **معاني القرآن وإعرابه** ، ط ١، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت.

• الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق، (١٩٨٦) ، **حروف المعاني** ، ط ٢، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ودار الأمل ، إربد.

• الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبدالله ،(١٩٨٤) ، **البرهان في علوم القرآن** ، ط ٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث، القاهرة .

• الزركلي، خير الدين محمود بن محمد،**الأعـلام** ، ط ١٥،(٢٠٠٢)، دار العلم للملايين، بيروت.

• الزمخشري، جار الله محمود بن عمر.

-(١٩٩٨) **أساس البلاغة**، ط١، تحقيق محمد باسل عيون السود، دارالكتب العلمية ، بيروت.

- (١٩٩٨) ، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** ، ط١، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار العبيكان ، الرياض .

• السامرائي ، فاضل صالح .

- (٢٠٠٢)، **على طريق التفسير البياني** ، ط ١، جامعة الشارقة.

- (٢٠٠٣)، **لمسات بيانية في نصوص التنزيل** ط٣، دارعمار، بيروت.

• السخاوي ، علم الدين علي بن محمد ، (١٩٨٧) ، **جمال القُرَّاء وكمال الإقراء** ، ط ١، تحقيق علي حسين البواب ، مكتبة التراث ، مكة المكرمة.

• ابن سلام ، أبو عُبَيْد القاسم ، (١٩٩٥) ، **فضائل القرآن ومعالمه وآدابه** ، تحقيق أحمد بن عبد الواحد الخياطي ، مطبعة فضالة ، المغرب.

• السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي ، (٢٠٠٠) ، **مفتاح العلوم** ، ط ١، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

• ابن أبي سُلمى، زهير بن أبي سُلمى بن ربيعة ،(١٩٨٦)، **شرح ديوان زهير بن أبي سُلمى**، قدم له وعلق على حواشيه سيف الدين الكاتب، وأحمد عصام الكاتب ، دار مكتبة الحياة ، بيروت.

• السيوطي ، جلال الدين.

– (٢٠٠٨) ، **الإتقان في علوم القرآن** ، ط١، تحقيق شعيب الأرنؤوط مؤسسة الرسالة ، دمشق، وبيروت.

– (٢٠٠٢)، **أسباب النزول المسمّى لُباب النقول في أسباب النزول** ، ط١ ، مؤسسة الكتب الثقافية ، بيروت ،

– (١٩٧٨)، **أسرار ترتيب القرآن** ، ط ٢، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار النصر للطباعة الإسلامية ، القاهرة.

• الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد ، (١٤٢٦هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط١، دار عالم الفوائد ، مكة المكرمة.

• الشيخلي ، بهجت عبد الواحد،(٢٠٠١)، **بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابًا وتفسيرًا بإيجاز** ، ط١، مكتبة دنديس ، عمان.

• الصابوني ، محمد علي،(١٩٨١) ، **صفوة التفاسير** ، ط١ ، دار القرآن ، بيروت، لبنان.

• الصالح ، صبحي .

– (٢٠٠٤) **دراسات في فقه اللغة**، ط ١٦، دارالعلم للملايين، بيروت

– (٢٠٠٢) **مباحث في علوم القرآن** ، ط ٥ ، دار العلم للملايين، بيروت.

• الصمادي ، معتصم محمد صالح ،(٢٠٠٣)، **سورة المؤمنون، دراسة أسلوبية،** رسالة ماجستر، الجامعة الأردنية ، عمان.

• ابن عاشور، محمد الطاهر ، (١٩٨٤)، **تفسيرالتحرير والتنوير** ، الدارالتونسية ، تونس.

• عباس ، فضل حسن ، (٢٠٠٧)، **البلاغة فنونها وأفنانها** ، ط١١، دار الفرقان ، عمان

• عبد الباقي ، محمد فؤاد ،(١٩٤٥)، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** ، دارالكتب المصرية ، القاهرة.

• عبد الرحمن ، عائشة (بنت الشاطئ)، (١٩٨٤)، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية** ، ط٣، دار المعارف ، القاهرة .

• ابن عطية الأندلسي ، أبو محمد بن عبد الحق بن غالب ،(٢٠٠١)، **المحرر الوجيز في كتاب الله العزيز،** ط ١، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ، بيروت.

• ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله ،(١٩٧٥) ، **شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك** ، ط ١٦، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت.

• العنزي ، عواد بن عيفان ،(١٤٢٩هـ) ، **المسبحات الخمس دراسة بلاغية** ، رسالة ماجستير ، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

• أبو عودة، عودة خليل،(١٩٨٥)، **التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن دراسة دلالية مقارنة** ، ط١، مكتبة المنار ، الزرقاء.

• ابن فارس، أبو الحسين أحمد.

- (١٩٧٧)، **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسُنن العرب في كلامها** ، ط١، علق عليه وضع حواشيه أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

- (١٩٧٩)، **مقاييس اللغة** ، تحقيق عبد السلام هارون ، دارالفكر.

• القاسمي ، محمد جمال الدين ،(١٩٥٧)، **محاسن التأويل** ، ط ١، وقف على طبعه وتصحيحه أحمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة.

• القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري.

- (٢٠٠٥)، **الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته** ط ١، تحقيق عرفان بن سليم العشا حسونة الدمشقي، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت.
- (١٩٧٩) **التذكار في أفضل الأذكار في فضل القرآن**، تحقيق ثروت محمد نافع ، دار التوحيد، دون مكان.
- (دون تاريخ) ، **الجامع لأحكام القرآن** ، تحقيق عماد زكي البارودي وخيري سعيد ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة.

• القطان ، منّاع ، (١٩٩٠)، **مباحث في علوم القرآن** ، ط ٢٢، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

• قطب ، سيّد.

- (٢٠٠٢) ، **التصوير الفني في القرآن** ، ط ١٦، دار الشروق ، القاهرة.

- (١٩٨٨) ، **في ظلال القرآن** ، ط١٥، دار الشروق ، بيروت.

• القيسي ، أبو محمد مكي بن أبي طالب ،(٢٠٠٨)، **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة** ، ط٥، تحقيق أحمد حسن فرحات ، دار عمار ، عمان .
• ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، (١٩٨٧)، **مختصر تفسير ابن كثير**، تحقيق محمد علي الصابوني ، دار التراث العربي ، القاهرة .

• الكرماني ، محمود بن حمزة .

- (١٩٧٧) ، **أسرار التكرار في القرآن المسمّى البرهان في توجيه متشابه القرآن** ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ، القاهرة.

- (١٩٨٣)، **غرائب التفسير وعجائب التأويل** ، ط ١، تحقيق شمران سركال يونس العجلي ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة .

• لاشين ، عبد الفتاح ،(١٩٩٨)، **البيان في ضوء أساليب القرآن** ، ط ٢، دارالفكر، القاهرة.

• مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي،(٢٠٠٨)، **الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم** ط١، عمان .

• المباركفوري ، أبو العلى محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم ، (دون تاريخ)، **تحفة الأحوذي في شرح جامع الترمذي** ، تحقيق رائد بن صبري بن أبي علفة ، بيت الأفكار الدولية ، عمان ، والرياض.

• مجمع اللغة العربية ،(١٩٨٥)، **المعجم الوسيط** ، ط ١، دار عمران ، دون مكان .

• محيسن ، محمد سالم ،(١٤٠٢)، ، **تاريخ القرآن الكريم** ، دعوة الحق سلسلة شهرية ، دار الأصفهاني ، جدة.

• المُرادي ، الحسين بن قاسم ،(١٩٩٢)، **الجنى الداني في حروف المعاني**، ط ١ ، تحقيق فخر الدين قباوه ومحمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

• المرسي، كمال الدين عبد الغني ، (١٩٩٩)، **فواصل الآيات القرآنية** ، ط ١، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

• مسلم بن الحجاج ، أبو الحسين القشيري النيسابوري، (٢٠٠٩)، **صحيح مسلم** ، ط١، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة .

• المسلم ، عدالة مصطفى موسى، (٢٠٠٧) ، **سورة الصافات دراسة أسلوبية** ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عمان.

• مكرم ، عبد العال سالم ، (١٩٩٦) ، **الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني**، ط١، مؤسسة الرسالة بيروت.

• منصور، عبد القادر، (٢٠٠٢)، **موسوعة علوم القرآن الكريم** ، ط١، دار القلم العربي، حلب.

• ابن منظور ، جمال الدين بن مكرم الأنصاري ، (٢٠٠٠) ، **لسان العرب** ، ط ٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

• النسفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، (٢٠٠٨) ، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل** ، ط ٢، اعتنى به عبد المجيد طعمة حلبي ، دار المعرفة ، بيروت .

• الهاشمي ، السيد أحمد ،(١٩٩٩)، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** ، ط ١، المكتبة العصرية ، بيروت .

• ابن هشام الأنصاري ، جمال الدين ، (٢٠٠٥)، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، ط ١، تحقيق مازن المبارك و محمد علي حمد الله ، دار الفكر ، بيروت.

• الوصابي ، محمد سعيد محمد سالم ،(٢٠٠٧)، **سورة الحجر، دراسة دلالية تركيبية** ، رسالة ماجستير، جامعة عدن .

قائمة المحتويات